

سعید الأفغاني

أستاذ العربية في كلية الآداب
ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها

من تاريخ النحو

طبع الفكر

سعید الأفیانی

من تاریخ الخو

تاریخ و نصوص

وق منهاج شهادة فقه اللغة في الجامعة اللبنانية



دار الفكر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا وجد المختصون في علم ما فائدة ومتعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجم من سبقهم في هذا العلم ، فإن متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم .

إننا نثني عادة على من يُؤلِّف كتاباً في حياة عالم ، إذ يتبع لنا أن نعايشه فنعاين جده ودأبه ، ولذلك نضاله لكشف الغامض ودفع العلم إلى الأمام ولو خطوة ، ونجده الأسوة في استهانته بالعراقل والمعوقات ، ووقفه للزمان والحساد والخصوم والباهاة ، وإن في حياة كل عالم من هذا لنصيبيا . لذلك نشكر لهذا المؤلف ما يسر لنا من المدائذ سامية .

لكن المسهم في تاريخ العلم لا يحصل على الشكر والثناء في وقت قصير ، وقد يقتضيه سطر واحد يخطه في تاريخ العلم من الجهد وطول العمل ما لم يعانيه المؤلف الأول في مجلد . ومن ظن أن حياة باحث تفي بتاريخ علم فقد ظن باطلًا ، إنما يتم ذلك بتضافر جهود الباحثين في أجيال متلاحقة : يتسلم كل جيل تراث من قبله ويعمل في دأب وروية ليتقدم به قليلا أو كثيراً . وموضوعنا في هذه الدراسة : من تاريخ النحو العربي .

وبعد ، فماذا يراد من كلمة « مذهب » أو « مدرسة » حين يقال في علوم اللغة العربية : مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين ؟

إن نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك في بعض ما عدوه من المسلمات انسحاباً على أذىال بعض القدماء من تكلم في النحو والنحوة . لقد أدار هؤلاء التصنيف على البلدان فقالوا : «نحو الكوفة» و «نحو البصرة» و «نحو بغداد» حين ألفوا في الطبقات . فساق هذا - مع تساهل كبير - إلى أن قيل فيما بعد : «مذهب البصريين» و «مذهب الكوفيين» و «مذهب البغداديين» .

وقد حان الوقت لتصحيح هذه التسمية ، فالآقدمون ومن تأثر بنظرتهم من المحدثين جعلوا البصريين أهل القياس لأن من ضبطه منهم شironون جداً ولم ي فيه عنابة باللغة ، على حين عدوا الكوفيين أهل سماع لأنهم سجلوا كل ما سمعوا ، وأراغوا القياس عليه فلم يحكموه إحكام الأولين وإن أربوا عليهم في السماع مقداراً لا ضبطاً وجودة .

* * *

هذه الصفحات محاولة في وضع الأمور في نصابها حيال ما يسمى بالمدارس أو بالمذاهب النحوية من جهة ، ووقفة تاريخية فاحصة متروية عند نشأة هذا الفن من جهة أخرى .

والفن أو العلم كائن حي يخضع لما يخضع له الاحياء من سن الحياة : يبدأ جنيناً فرضياً فطفلان فيافعاً ففتى فشاياً

وحول نشأة النحو بعض عموم اجتهدت في جلائه بما لدى من أصوات ، متحثناً الأخبار والروايات ، متعرجاً فيها ما يشبه الحق وطبيعة الأشياء ؛ حتى إذا اطمأننت إلى نتيجة ثبتها بعد امتحانها ، ضارباً صفحأ عن سطحيات وعناوين وتهاويل كثيرة يسميها أصحابها دراسات ، الموضوع منها والترجم سواء .

ورأيت أن الحق بهذه الدراسة نصوصاً مختارة لستة مؤلفين عظام في هذا الفن ، تقوم كتبهم معالم في طريقه الطويلة ، مع موجز من تراجمهم كما

وردت في « بغية الوعاء للسيوطى » مع اختصار أحياناً ، وتعريف يسير بكتبهم التي اخترنا منها نصاً أو أكثر ، (١) بحيث تتبع المطالع ملامح واضحة من الطريق الذي شقه النحو على مدى العصور . وسيعجب القارئ حين يرى أنه بدأ بقمة شامخة هي كتاب سيبويه ، ثمأخذ ينحدر مع الزمان . . ظاهرة غريبة لا أعرف لها مثيلاً في تاريخ العلوم والفنون .

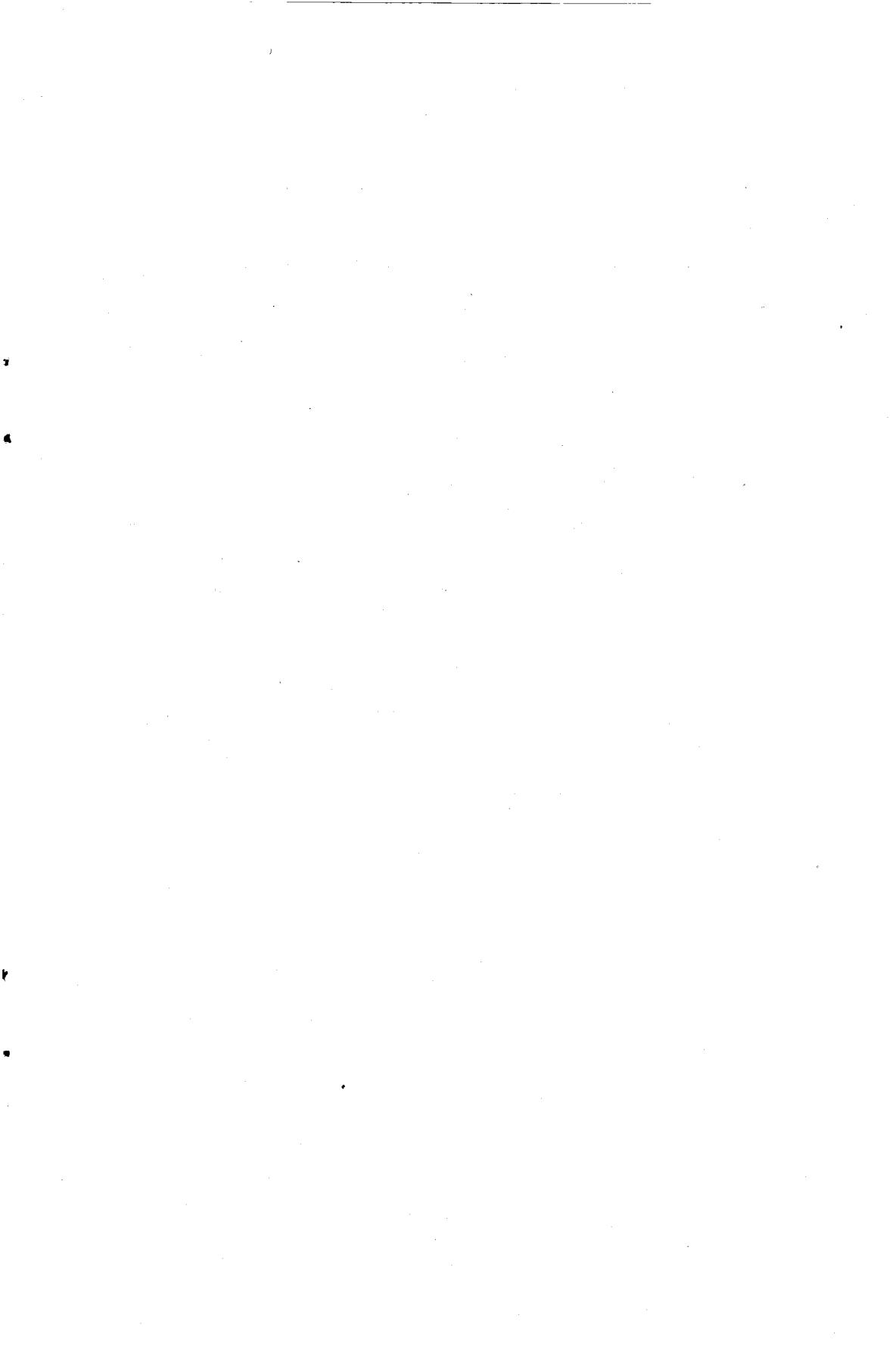
ولئن أسعف هذا الملحق من يبتغي النظرة العجل ، إنه لن يعني بحال عن الدراسة الشخصية المتشعة المتأينة التي يجب أن يقوم بها مستقلابا الباحث أو الطالب الجامعي : إمعان في الآثار وتأنٍ في استنباط النتائج ، وصبر على ما يتطلبه البحث من جهد ووقت .

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا ويسدد خطانا في خدمة العلم الخالص : متعلمين و معلمين .

بيروت : الجامعة اللبنانية (قسم اللغة العربية)

سعید الأفغاني

(١) مراجعين في اختيارها حاجة الدارسين في شهادة (فقه اللغة العربية) في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية .



نوطنة تارجيمية

جاء الاسلام واللغة العربية مستكملاً أدوات التعبير ، وله تراث ادبى حافل مفصح عن شئ المشاعر الوجدانية والاجتماعية ، قد اتفقت الكلمة على الاعتداد بهذا التراث والاعجاب به منذ عصر الجاهلية حتى اليوم .

والعرب أمة فصاحة وبلاغة تتأثر بالبيان الرفيع والجملة الوجيزة الموحية ، وكانت أسواق العرب في جاهليتها قد قامت بالاصطفاء من لغات القبائل (١) ، وأخذ الشعراء والبلغاء أنفسهم مما أجمعوا على استحسانه منها حتى تنافسوا في ذلك وأصبحت هذه اللغة المصطفاة هي المتفق على التعبير بها عما يخالج النفوس من أغراض وأحساس . وصرنا نسمع شبه هذا الاجماع على سلامه لغة قبائل الجزيرة والطعن بلغات أهل السواحل لمخالطتهم الأجانب في الأسفار والتجارات .

(١) انظر في كتابنا «أسواق العرب في الجاهلية والاسلام» فصل سوق عكاظ .

فلمـا كانت الفتوحـات واحتلاـط العـرب الفـاتـحين بالـشـعـوبـ التي كانت تحتـ سـيـطـرةـ الفـرسـ والـبـيزـنـطـينـ والأـحـباـشـ، وـدـخـولـ كـثـيرـ منـ هـؤـلـاءـ فـيـ الـاسـلامـ ، وـاضـطـرـارـهـمـ إـلـىـ تـعـلـمـ مـاـسـطـاعـوـاـ منـ الـعـرـبـيـةـ ، وـكـانـ بـيـنـ الـعـربـ الـفـاتـحـينـ وـهـؤـلـاءـ الشـعـوبـ اـخـتـلاـطـ وـأـخـذـ وـعـطـاءـ ، تـسـرـبـ الـفـسـادـ إـلـىـ لـغـةـ كـثـيرـ منـ الـعـربـ وـبـدـأـ يـسـمـعـ لـحـنـ فـيـ التـخـاطـبـ، قـلـيلـاـ فـيـ الـأـوـلـ ثـمـ أـخـذـ فـيـ الـاـنـتـشـارـ حـتـىـ لـفـتـ إـلـيـهـ أـنـظـارـ الـمـسـؤـولـينـ وـغـيرـهـمـ مـنـ أـهـلـ الـخـلـ وـالـعـقـدـ .

يعتبر اللحن الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها ؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، ولا بأس من عرض تاريخي سريع لبعض أحداثه المتتابعة :

بواحد اللعن

بدأ اللحن قليلاً خفيفاً منذ أيام الرسول على ما يظهر ، فقد لحن رجل حضرته فقال : «أرشدوا أخاكم فانه قد ضل» (١) والظاهر أيضاً أنه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه «اللحن» بدليل أن السيوطي روى عن رسول الله ﷺ قوله : «أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأني لي اللحن» (٢) وقد كان أبو بكر

(١) المتصانص لابن جني ٨/٢ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠). وروي في ارشاد الاربیل عن عبد الله بن مسعود ١/٨٢.

(٢) المزهر السيوطي (٣٩٧/٢ طبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة) (يعنيه محمد أحمد زياد المولى ورفيقه)، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني وقد ضعفه المحدثون.

الصديق يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فأحن ». .

فإذا بلغنا عهد عمر رأينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن ، فنذكر أن (١) عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا : « إنا قوم متعلمين » فأعرض مغضباً وقال : « والله لخطوكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم » سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رحم الله امرأ أصلح من لسانه » وورد إلى عمر كتاب أوله : « من أبو موسى الأشعري » فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب (٢) سوطاً . والأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة الناس للقرآن فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال : « من يقرئني شيئاً مما أنزل على محمد » ؟ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن :

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ... » (٣) فقال الأعرابي : « إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه » فيبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال : « يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ... وقصص القصة فقال عمر : « ليس هكذا يا أعرابي » فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين » ؟ فقال : « ... أن الله بريء من المشركين ورسوله ... » فقال الأعرابي : « وأنا أبرأ من بريء الله ورسوله

(١) ارشاد الاربيب ٦٧/١ مطبوعات دار المؤمنون ، والأضداد لابن الأباري ص ٢٤٤ طبع حكومة الكويت .

(٢) هو أبو الحصين بن أبي الحر العتبي كا في وفيات الاعيان (٥/٩٩) ، وكان أبو موسى قد استكبه بعد زياد .

(٣) سورة التوبة ٩/٣ .

منهم». فأمر عمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة».(١) ولعمر تنسب تلك القولة المأثورة: «تعلموا العربية فانها تثبت العقل وتزيد في المروءة»(٢).

ومر عمر برجلين يرميان فقال أحدهما لآخر: «أسبت» فقال عمر: «سوء اللحن أشد من سوء الرمي»(٣) فجعل إبدال الصاد سيناً من اللحن.

وتکاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعلم المشهور في تاريخ النحو: فقد دخل عليها أبوها في وقعة الحر بالبصرة فقالت له: «يا أبت ما أشد الحر! رفعت (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه: أي زمان الحر أشد؟ فقال لها: «شهراناجر». فقالت: «يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك».(٤).

(١) نزهة الالباء ص ٧ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٠/٧ مطبعة الثرقي بدمشق ١٣٥١هـ وانظر الحصائر لابن جني ٨/٢ وعيون الاخبار، وانظر مراتب النحوين ص ١٨. هذا وروایات اللحن في هذه الآية لا تتفق على وثيرة ، فمنها ما يجعل هذه القصة في زمن زياد ، وأن زياداً هو الذي طلب من أبي الاسود وضع شيء يقيم عوج الالسنة اللاحنة فأبى ابو الاسود «بعث زياد رجلاً يقدم له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتمد اللحن ، فقرأ: «... أَنَّ اللَّهَ بِرِيهِ مِنَ الْمُشَرِّكِينَ وَرَسُولُهُ...» بالحر ، فاستظم ذلك ابو الاسود وقال: «عز وجه الله ، إن الله لا يبرأ من رسوله» ثم رفع من فوره إلى زياد فقال: «يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت» انظر كتاب (الف باع) للبلوي ٤٦/١ . ولا يبعد الجمع بين الروایات.

(٢) ارشاد الاربيب ٧٧/١ وفي ص (٧٨) ان الزهربي كان يقول: «ما احدث الناس مروءة احب الي من تعلم النحو». هذا وقد زعموا ان عمر بن الخطاب كان يصرب اولاده على اللحن ولا يضر بهم على الخطأ (ص ٧٩) وان ابنته عبد الله كذلك (ص ٨٩)

(٣) البخاري في «الأدب المفرد» ص ٢٢٧ .

(٤) وتنمية الخبر في الاغاني للاصفهاني (١٠١/١١) : انه دخل على امير المؤمنين علي بن ابي طالب فقال: يا امير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما حائلت العجم ، واوشك ان تطاول عليها زمان ان تص محل» واحبه خبر ابنته ... فأنزل عليه: أن الكلام كله ←

ونتقدم خطوة في الزمن فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلا دخل على زياد فقال له : «إن أبينا هلك وإن أخيانا غصبنا على ميراثنا من أبانا» فقال زياد : «ما ضيغت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك» وأن أعرابيا سمع مؤذناً يقول : «أشهد أن محمداً رسول الله» فقال : «وبحكم ، يفعل ماذا»؟ (١) وأن أعرابياً دخل للسوق «فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويرحون ونحن لا نلحن ولا نربع» ! (٢) . وروى الجاحظ أن «أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي (بدل عصاي) وأول لحن سمع بالعراق : حي على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها)» (٣) .

ثم شاع في العصر الأموي حتى تطرق إلى البلوغاء من الخلفاء والأمراء كعبد الملك والحجاج . والناس يومئذ تتعارض به ، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع أن يلحن ، حتى قال عبد الملك وقد قيل له (أسرع إليك الشيب) : «شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن» (٤) . وكان يقول : «إن الرجل يسألني الحاجة فستجيب

← لا يخرج عن اسم وفلي وحرف جاء لمعنى) وهذا القول أول كتاب سيبويه . ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها التسويون وفرعواها . اهـ قلت : هذه أحدى روایات مشهورة في اولية النحو ، وبعد صفحة تجد ابا الفرج يروي عن ابن أبي الاسود قوله : «أول باب وضعه اني من النحو : التعجب» .

وفي الحادث الذي حضر أبا الاسود على وضع ماضع روایات عدّة قد يأتي بعضها في بحث المخلاف ، وانظر واحدة يرويها الزبيدي في كتابه طبقات النحوين واللغويين ص ١٥ وفي النفس شيء من نسبة الأولية في وضع النحو وسائر العلوم لعلي بن أبي طالب .

(١) عيون الاخبار ١٥٩/٢ . ومر أبو عمرو بن العلاء بالبصرة فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها : (لأبو فلان) فقال : «يا رب يلحنون ويرزقون» إنماء الرواية ٣١٩/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢١٩/٢ .

(٣) مخطوطه الظاهرية من تاريخ دمشق لابن عساكر رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١/٤٩٠ .

نفي له بها فإذا لحن انصرفت نفسي عنها (١) وكان يرى
اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس (٢).

والحجاج على أنه من الخطباء الأبناء البلغاء ، كان في طبعه
تفزز من اللحن أن يقع منه أو من غيره ، فإذا وقع منه حرص
على ستره وإبعاد من اطلع عليه منه ، ذكروا أنه سأله سعى
ابن يعمر الليثي : «أتسمعني ألحن على المنبر»؟ فقال يحيى :
«الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يزوي الشعر» قال :
«أتسمعني ألحن حرفاً»؟ قال : «نعم ، في آي القرآن» قال :
«فذاك أشبع ، وما هو»؟ قال تقول :

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإنحوانكم وأزواجركم
وعشيرتكم وأموال اقرفموها وتجارة تخشون كсадها أحبت
إليكم من الله ورسوله ..» (٣). تقرؤها (أحب بالرفع ،
فائف الحجاج ان يطلع له رجل على لحن فبعث به إلى
خراسان (٤). وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسألة
يوماً : أخبرني عن عنبسة بن سعيد : أيلحن؟ قال : «كثيراً»
قال : «أفأنا أحن؟» قال : «لحساً خفيفاً» قال : «كيف ذلك؟»
قال تجعل أن : إن) و (إن : أن) و نحو ذلك . قال : «لا تسأكني
ببلد ، اخرج» (٤) وكان الرجل إذا أراد أن يفلت من عمل

(١) من رسالة للجاحظ في صناعة القواد ، ص ٢٦٠ (رسائل بالجاحظ) جمع السنديبي .

(٢) عيون الاخبار ١٥٨/٢ ومن قول ابنه مسلمة «اللحن في الكلام أقبح من الجدر في الوجه» .

(٣) سورة التوبة ٢٤/٩ .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٥/٤ (روضة الشام ١٣٣٢) وطبقات النحوين
واللغويين ص ٥ .

ذكر ابن قتيبة : إن الحجاج أمّ قرماً فقرأ «والعاديات ضبيحاً» وقرأ في آخرها : ←

للحجاج عاذ باللحن فنجا (١) .

وهو لاء تطرق إليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع أنهم نشروا فيها وترعرعوا واكتهلو ، فلما كان من بعدهم عظم فشو اللحن فيهم حتى كان من أعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحنة ، وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح . ونقلوا عن عبد العزيز بن مروان الأمير الأموي المعروف وهو أخو عبد الملك لحنا ، على أن عبد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان « يعطي على العربية ويحرم على اللحن ، حتى قدم عليه زوار من أهل المدينة وأهل مكة من قريش فجعل يقول للرجل منهم : « من أنت » ؟ فيقول : « من بني فلان ». فيقول للكاتب : « أعطه مئي دينار ». حتى جاءه رجل من بني عبد الدار فقال : « من أنت » ؟ فقال : « من بنو عبد الدار ». فقال : « تجدها من جائزتك » وقال لكاتبه : أعطه

← « أن ربهم بهم يومئذ خبير » بفتح همزة (أن) ثم تتبه على اللام في (خبر) وأن (أن) قبلها لا تكون إلا مكسورة فحذف اللام من (خبر) فقرأ : « أن ربهم بهم يومئذ خبير » . - عيون الاخبار ٢/٦٠ . ومع هذا فقد روى عن الاصمعي قوله : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج أفضلهم - أمالی الزجاجی ص ١٥ .

(١) في إرشاد الاريб (٨٧/١) : بعث الحجاج إلى والي البصرة : إن اختر لي عشرة من عندك فاختار رجالا منهم كثير بن أبي كثير وكان رجلا عربياً ، قال كثير : فقلت في نفسي : « لا أفلت من الحجاج إلا باللحن ». فلما أدخلنا عليه دعاني فقال : « ما احشك ! فلت : « كثير » قال : « ابن من ! » فلت ... (ابن أبي كثير) فقال : عليك لعنة الله وعلى من بعث بك ، جئوا في قفاه » فأخرجت .

مئة دينار » (١) .

وقال عمر بن عبد العزيز : « إن الرجل ليكلمي في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيئه إليها التذاذًا لما أسمع من كلامه » و كان يقول : « أكاد أضرس إذا سمعت اللحن » .
(الأسداد لابن الأباري ص ٢٤٥)

وهذا معاوية بن بجير والي البصرة تشغله لحنة الناعي عن مصبيته بأبيه فيقدم إنكارها .

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (خطوطة الظاهرية رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١٥٠ / ١) .
هذا ومن المفيد ذكر الباعث على عنابة عبد العزيز بن مروان بالعربية فقد روى ابن عساكر قبل هذا الخبر أنه « دخل على عبد العزيز رجل يشكو صهراً له فقال : « إن ختنى فعل بي كذا وكذا » فقال له عبد العزيز : « من ختنك ! » فقال له « ختنى اخنان الذي يختن الناس » فقال عبد العزيز لكتبه : « ويحيى ، بم أجابني ! » فقال له : « أيها الأمير إنى لخنت وهو لا يعرف اللحن ، كان ينبغي أن تقول له : « ومن ختنك ! » فقال عبد العزيز : أراني اتكلم بكلام لا يعرفه العرب ، لأشاهدت الناس حتى أعرف اللحن » . فأقام في البيت جماعة لا يظهر ومه من يعلمه العربية ، فضل الناس الجماعة وهو من أحسن الناس . » اهـ. قلت : تروى هذه اللحنة للوليد بن عبد الملك : انظر ص ١٤٣ من (نقد النثر) المنسوب لقدامة (مطبعة لحنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٣٥٩ هـ).

خزانة الأدب ٣/٥٨٣ .

وانظر في لحنه أيضًا البيان والتبيين للباحث (٢/٤٢) فما بعد (مطبعة لحنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨) .

أما أمر الوليد الذي مر آنفًا فقد أهمل عبد الملك حتى أفضى بذلك نفسه يوماً إلى روح ابن زباع قائلًا :

« يا أبا زرعة ، قد غلبني الوليد باللحن ، وسائله العشية كآبة فسلني عنها ودعني والوليد » فلما أذن المشاء أظهر كآبة وعنده الوليد وسلامان وروح فقال له روح : « ما هذه الكآبة يا أمير المؤمنين ! لا يسوقك (الله) ولا يريشك مكروهاً ! » قال : ذكرت ما في عنقي من أمر هذه الأمة وإلى من أصير أمرها بعدي ! » قال له روح : ينفر الملك يا أمير ←

فأنت تجد مما تقدم أن الخوف على العربية له ما يفرضه من النذر ، وأنه تمكّن في النفوس حتى تصافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية ، وأن الحرمان من المال أو العمل مما كان يصيب اللحانة ، وأن فصاحة المرأة قد ترتفع إلى الولايات والغنى وتزيد شأنه عند أولي الأمر ؛ وهذا من طرف السلطان كاف في الترغيب والترهيب . وسؤال الحاجاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن . وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعد أن رأت اللحن يفسو في الطبقات الرفيعة من الأمراء والحكام وأشراف الناس ، وفي قصة بشكت النحوي تعيير واضح عن أمررين : فشو اللحن ونظرة المثقفين إليه ، ولا بأس في إيرادها ففيها طرافة وفيها ظرف :

← المؤمنين . فاين أنت عن الوليد سيد شباب العرب ! » قال « يا ابا زرعة ! لا ينبغي ان يلي أمر العرب إلا من يتكلّم بكلادها » فقام الوليد فدخل منزله فجمع إليه اصحاب النحو ، فاقام ستة أشهر معهم ، وخرج يوم خرج وهو أجهل بالنحو منه يوم دخل ، فقال عبد الملك : « قد أجهد وأعذر » المصدر السابق الورقة ١/٤٢١ .

واحتاج على عبد الملك بلحن الوليد هذا ، فقد ذكر ابن عساكر ان عبد الملك قال لرجل من قريش : « انك لرجل لولا انك تلحن » فقال : « وهذا ابنك الوليد يلحن » قال عبد الملك : « لكن ابني سليمان لا يلحن » قال الرجل : « واني فلان لا يلحن ! » الورقة ١/٤٢٤ .

بل كان لا يستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر ، ذكره ابو الزناد يوماً فقال : « كان لخانأ كأني أسمعه على منبر النبي صل الله عليه وسلم يقول : يا أهل المدينة ! ». .

بل كان لا يستطيع تجنبه حتى في آيات القرآن : قرأ يوماً على المنبر « يا ليتها كانت (ضمة) بضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز (وكان تحت المنبر) : يا ليتها كانت ورق) عليك وأراحتنا نبك ! » الورقة ٤/٤٢ .

أدب عليهـ بن عبد العزيز هذا أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما شاد الاربيب . ٨٩/١ .

« وفـد بشكـست النـحوي عـلـى هـشـام بـن عـبـد الـمـلـك ، فـلـما حـضـر
الـغـداء دـعـاه هـشـام ، وـقـال لـفـتـيـان بـنـ أـمـيـة : « تـلاـحـنـوا عـلـيـهـ »
فـجـعـلـ بـعـضـهـمـ يـقـولـ : « يـاـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ رـأـيـتـ أـبـيـ فـلـانـ . . . »
وـيـقـولـ آـخـرـ : « مـرـبـيـ أـبـيـ فـلـانـ . . . » وـنـحـوـ هـذـا ، فـلـما ضـجـواـ
أـدـخـلـ يـدـهـ فـيـ صـحـفـةـ فـغـمـسـهـاـ ثـمـ طـلـيـ لـحـيـتـهـ وـقـالـ لـنـفـسـهـ : « ذـوقـيـ ،
هـذـاـ جـزـاؤـكـ فـيـ مـجـالـسـةـ الـأـنـذـالـ » ! (١) .

إـلـىـ هـذـاـ المـدىـ بـلـغـ أـمـرـ الـلـحـنـ فـيـ الـمـئـةـ الـأـوـلـىـ لـلـهـجـةـ وـالـدـوـلـةـ
عـرـبـيـةـ مـخـصـصـةـ ، وـالـعـصـبـيـةـ ذـاتـ سـلـطـانـ ، وـالـقـومـ حـدـيـثـوـ عـهـدـ
بـجـزـيرـتـهـمـ وـلـاـ تـرـالـ مـجـتمـعـاـتـهـمـ تـتـنـاقـلـ القـوـلـ الـمـشـهـورـ : « لـيـسـ
لـلـحـنـ حـرـمـةـ » وـتـعـاـمـلـ بـهـ ، هـذـاـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ اـسـتـأـذـنـ
عـلـيـهـ رـجـلـ مـنـ عـلـيـهـ أـهـلـ الشـامـ وـبـيـنـ يـدـيـهـ قـوـمـ يـلـعـبـونـ بـالـشـطـرـنـجـ
فـقـالـ : « يـاـ غـلـامـ ، غـطـهـاـ » فـلـماـ دـخـلـ الرـجـلـ فـتـكـلـمـ ، لـحـنـ ،
فـقـالـ عـبـدـ الـمـلـكـ : « يـاـ غـلـامـ ، اـكـشـفـ عـنـهـاـ ، لـيـسـ لـلـحـنـ
حـرـمـةـ » . - (الأـضـادـ لـابـنـ الـأـنـبـارـيـ صـ ٢٤٥ـ) .

وـبـيـتـ الـخـلـافـةـ أـعـرـقـ بـيـوتـ قـرـيـشـ شـرـفـاـ وـمـجـداـ وـبـلـاغـةـ
وـأـقـوـاـهـاـ عـصـبـيـةـ وـعـرـوـبـةـ . (٢) وـالـعـرـبـ . كـمـ قـرـرـ اـبـنـ جـنـيـ .

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (خطوطة الظاهرية)الجزء السابق الورقة ١/٤٥٤ ثم قال ابن عساكر فيه : « وكان نحوياً أخذ عنه أهل المدينة ، وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك . فلما ظهر أبو حمزة الشاري بالمدينة (سنة ١٢٠ هـ) خرج معه فقتل فيمن قتل بخلافة مروان بن محمد . » وأسمه عبد العزيز القاري وقيل في مقتله :

لقد كان بشكست عبد العزيز من أهل القراءة والمسجد
فبعداً بشكست عبد العزيز وأما القراء فلا يبعد بورة

انظر النسخة الثانية من تاريخ دمشق لابن عساكر (رقم ٣٣٧٤/٩ تاريخ ٢٠٢

، والاغاني ١١١/١ و ١٠٨/٢٠ وإناء الرواة ١٨٣/٢ ، وحسبك

(٢) هذا ومع ضعف السلبيّة العربية على الزمن لم يضعف استهجان الخاصة ←
هذه الموارد الأربع رمزاً إلى ذلك ، وكلها في صدر الدولة العباسية

أشد استنكاراً لزيف الإعراب منهم لخلاف اللغة ، فقد ينطق بعضهم بالدخيل والمولد ولكنه لا ينطق باللحن .

ولذلك اشتد بلال بن أبي بردة على خالد بن صفوان لما رأه يلحن في حديثه العفوي معه فقال له : « أتحدثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات » ؟ فلنحاول تبيان ما احتط أهل العربية من خطط يعالجون بها استفحال الداء ، وهل كانوا إلى الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية ؟

نصيف العرب من هيئ الوئو بسلامة لغتها :
من يحتاج به

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة ، أو استعمال الكلمة أو تركيب ، بدليل نصيحي صحيح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة على ما سيأتي تفصيله في موضعه .

← تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه اعرابي فلحن ، فصر الاعرابي أذنيه (حدهما مصرياً باهتمام) فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى ، فقال الاعرابي : « أَفْ هُنَّا : مَا هُنَّا ! » ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الاعرابي : « أَشَهِدُ لَقَدْ وَلِيْتُ هَذَا الْأَمْرَ بِقَضَائِهِ وَقَدْ ! » .

وقال سعيد بن سلم : « دخلت على الرشيد فهربني هيبة وجمالا ، فلما لحن خف في عبي ». ودخل رسول واي الكوفة العباس بن محمد بن موسى على طاهر بن الحسين فقال له : « أَخِيكَ أَبِي مُوسَى يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ » قال : « وَمَا أَنْتَ مِنْهُ ! » قال : « كاتبه الذي يطعمه الحبز » فأمر توأ بصرف العباس عن الكوفة إذ لم يتخذ كاتباً يحسن الأداء عنه . -

إرشاد الاريء ٨٤/١ ، ٨٣ ، ٨٦ بتصريف يسir ،
بل إن المؤمن كان يأخذ عماله باللوم إذا كان في كتبهم إليه لحن ويعذر ذلك تفريطاً في جانب مقام الخلقة وإليك حديث ابن قادم التحوي الكوفي :
« وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعي يوماً فأحضرني فلم أدر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن إبراهيم كاتبه على الرسائل وهو على غاية من الهملا والجزع ، ←

ولأنما احتاج القوم إلى الاحتجاج لما خافوا على سلامه اللغة العربية بعد أن اختلط أهلها بالأعاجم إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم ، فنشأ عن ذلك بسنة الطبيعة أخذ وعطاء في اللغة والأفكار والأخلاق والأعراف . وتنبه أولو البصر إلى أن الأمر آيل إلى إفساد اللغة وضياع العصبية من جهة ، وإلى التفريط في

قال لي بصوت خفي : « إنه إسحاق » ومر غير متلبث ولا متوقف حتى رجع إلى مجلس إسحاق ، فراغني ذلك . فلما مثلت بين يديه قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مالا » أو « وهذا المال مال » ! فعلمته ما أراد ميمون ، فقلت له : « الوجه (وهذا المال مال) ويجوز (وهذا المال مال) » ، فأقبل إسحاق على ميمون بغلظة ونظاظة ثم قال : « الزم الوجه في كتبك . ودعنا من يجوز ويجوز » ورمي بكتاب في يده ، فسألت عن الخبر فإذا ميمون قد كتب إلى المؤمن وهو ببلاد الروم عن إسحاق وذكر مالا حبله ، فكتب : « وهذا المال مالا » خطأ المؤمن على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته : « تخطبني بلحن ! ! » فقامت القيمة على إسحاق .

فكان ميمون بعد ذلك يقول : « ما أدرى كيف أشكر ابن قادم ، أبقى على روحي ونعمتي ! ! » قال ثلب راوي الحديث : « فكان هذا مقدار العلم وعلى حسب ذلك كانت الرغبة في طلبه والخذل من الزلل . قال « وهذا المال مالا » ليس بشيء ، ولكن أحسن ابن قادم في الثاني نلاص ميمون . » — إنباء الرواية ١٥٧/٣ وطبقات النحوين والقويين للزبيدي ص ١٥٣ .

حتى إذا امتد الزمن خف الاستنكار شيئاً ما فصرنا نرى ثلثاً النحوى « لا يتتكلف إقامة الإعراب في كلامه إذا لم يخش لبسًا في العبارة » ونرى إبراهيم العربي وقد ذكر له ذلك يقول : « أيس يكون إذا لحن في كلامه ! كان هشام النحوى يلحن في كلامه ، وكان أبو هريرة يكلم صبيانه بال Brittية . » — إنباء الرواية ١٤٠/١ .

بل كان بعض الأمراء بالبصرة يقرأ (إن الله وملائكته) بالرفع فمضى إليه الأخفش ناصحاً له فانتهره وتوعده وقال « تلحنون أمراءكم ! ! » — إنباء الرواية ٤٣/٢ . على أن من يعتد بهم في المجتمع مسؤوا على استهجان اللعن زمناً طويلاً فقد حدث حفص بن غياث قال :

« وجه إلينا عيسى بن موسى ليلاً فصرنا إليه والحمد لله سلطاناً وقد امتلأنا رعباً منه فقال : « ما دعوتكم إلا لخيراً » فزالت هيته من قلوبنا لقبح لعنه » — المصنون للعسكري ص ١٤٦ طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٠ م .

صيانة الدين من جهة ثانية ، إذ كانت سلامة أحکامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم .

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواية عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحديثين . وتقصوا أحواهم ونقدوها ، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته سلامة عربته ، ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً .

فأما الزمان فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال العرب الجاهلية وفصحاء الإسلام حتى متتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم للبادية . أما الشعراء فقد صنفوا أصنافاً أربعة : جاهليين لم يدر كوا الإسلام ، ومخضرمين أدر كوا الجahلية والإسلام ، وإسلاميين لم يدر كوا من الجahلية شيئاً ، ومحديثين أو لهم بشار بن برد (١) . وشبه الأجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأوليين واختلفوا في الطبقة الثالثة ، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب إلى جواز الاستشهاد بها (٢) أما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة ، وكان آخر من يحتاج بشعره على هذا الأساس بالأجماع ابراهيم ابن هرمة (٧٠ - ١٥٠ هـ) الذي ختم الأصممي به الشعر (٣) . أما

(١) الاقتراح ص ٣٢ .

(٢) خزانة الأدب ٢٠/١ .

(٣) الاقتراح للسيوطى ص ٢٢ (مطبعة المعارف بميدان آباد ١٣١٠ هـ) . هذا وبعضهم يرى الاحتجاج بالطبقة الرابعة مستدلاً باستشهاد سيويه بشار بن برد في (الكتاب) ، ويرد المترضون بأنه إنما فعل ذلك خوفاً من لسانه .

أهل الباذية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري (١) .

وعلى هذا «أجمعوا على أنه لا يحتاج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية» (٢) .

وأما المكان أو بعبارة أخرى القبائل ، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة ، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب ، وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم ، وإليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج :

أ— «كانت قريش أجود العرب انتقاء (٣) للأفصح من

(١) قرر ياقوت في معجم البلدان مادة (عقد) أن جيل «عكاد» فوق مدينة الزرائب «وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يخالطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة وهم أهل قرار لا يطعنون عنه ولا يخرجون منه» . (توفي ياقوت سنة ٦٢٦ هـ) ثم جاء صاحب القاموس المحيط المتوفى سنة (٨١٧ هـ) فقرر أن «عكاد» جبل باليمن قرب مدينة زبيد وأهله باقية على اللغة الفصيحة» . ثم زاد المرتضى الزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥ هـ) في شرحه للقاموس عند هذه المادة كلمة «إلى الآن» وقال : « لا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاثة ليال خوفاً على لسانهم ! » — ارجع إلى هذه المادة (عقد) في المراجع الثلاثة المذكورة . والزبيدي أقام في (زيد) زمناً طويلاً فهو بها عارف .

(٢) الاقتراح ص ٣١ وقد مال الزمخشري إلى استثناء أئمة العربية من ذلك داعياً إلى «جعل الوثائق بكلامهم كالوثائق برواياتهم » وليس بشيء .

(٣) قال ابن فارس : (وكانت قريش مع فصاحتها . . . إذا اتتهم الوفود من العرب تخروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاماتهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .) — الصاحبي ص ٢٣ (المطبعة السلفية بالقاهرة) .

الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنتها مسموعاً وأبینها عما في النفس .

والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم وأسد فان هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر مأخذ
و معظمهم ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف .
ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين ولم يؤخذ عن غيرهم
من سائر قبائلهم (١) .

ب - وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري من يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم :

لم يؤخذ من لحم ولا من جدام فانهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط .

ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إياد فـأـنـهـمـ كانواـ مـجاـورـينـ لـأـهـلـ الشـامـ وـأـكـثـرـهـمـ نـصـارـىـ يـقـرـؤـونـ بـصـلـاتـهـمـ بـغـيرـ الـعـرـبـيـةـ .

وَلَا مِنْ تَغْلِبٍ وَلَا نُمْرٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا بِالْجَزِيرَةِ مُجَاوِرِينَ
لِلْيُونَانِيَّةِ .

ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبي والفرس .

(١) ومع هذا لم تكن لغات هؤلاء بالمرضية دائمًا : قال الحسن البصري يوماً (توضيّت)
فقيل له : (أتلحن يا أبا سعيد ! !) فقال (إنها لغة هذيل وفيها فساد) . انظر كتاب
(الفباء) للبلوي ٤٦ / ١ .

ولا من عبد القيس لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين
للهند والفرس .

ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس .

ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولو لادة
الحبشة فيهم .

ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان
الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .

ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين
ابتدؤوا ينقلون لغة العرب ، قد خالطوا غيرهم من الأمم
وفسدت ألسنتهم » (١) .

(١) الاقتراح للسيوطى . ص ٣٢٠ . نقلًا عن كتاب الفارابي (الالفاظ والحروف)
هذا وقد أورد الباحث في كتابه (البيان والتبين) مقاولة طريفة بين أهل مكة
والبصرة والكوفة ، يفيد إيرادها في شرح الظاهرة المذكورة أعلاه ، قال الباحث : (أهل
المصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك نجد الاختلاف في الفاظ اهل
الكوفة والبصرة والشام ومصر . . . وقال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر (ليست لكم
معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة (هنا أهل مكة .) فقال محمد بن مناذر :
(أما ألفاظنا فأحكي الالفاظ للقرآن واكثراها موافقة له ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث
شئتم : أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول (قدر) ونجمعها
على قدور ، وقال الله عز وجل (في جفان كالجواب وقدور راسيات) وأنتم تسمون
البيت (علية) وتجمعون هذا الاسم على عالي ونحي نسميه (غرفة) ونجمعه على غرف
وغرفات ، وقال الله « غرف من فوقها غرف مبنية » وقال : « هم في الغرفات آمنون » ،
وأنتم تسمون الطلع (الكافور والاغريض) ونحي نسميه الطلع وقال الله « ونخل طلماها
هضيم » . . . فعد عشر كلمات لم أحفظ أنها منها غير هذا .

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر . علقوا بالفاظ
من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون . . . الخ .

وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة : (بال) وبالفارسية : ولو علق ذلك لغة
أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه باذ كان أهل ←

وكان هذا التصنيف حاز القبول وجرى عليه العمل وكان الخروج عليه مدعوة إلى النقد، ولما اعتمد ابن مالك على لغات لحم وجدام وغضان ، تعقبه باللوم أبو حيان فقال في شرح التسهيل : « ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن » (١) .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لا أقول : (قالت العرب..)
إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » ي يريد ما بين نجد وجبال الحجاز حيث قبائل أسد وتيم وبعض قبائل قيس (٢) بل كان عثمان يقول : « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف » (٣) .

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتاج بهم فخيرها ما كان أعمق في التبدي وألصق بعيشة البدية ، ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عن الأعراب أهل الشيخ والقيصوم وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع ويقولون للكوفيين : « أخذتم عن أكلة الشواريز وباعة الكواميغ » (٤) . وقد نص

← الكوفة نزلوا بأدف بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمى أهل الكوفة الحوك (البلقة الحمقاء) بازورج والبازورج بالفارسية والحكوك كلمة عربية . وأهل البصرة إذا التقى أربع طرق يسمونها (مربيعة) وتسماها أهل الكوفة (جهارسو) والجهار بالفارسية . ويسمون السوق أو السوقية وازار والوازار بالفارسية . ويسمون القناء خياراً والخيار فارسية . ويسمون المجنوم ويني بالفارسية . - ١٨/١ هـ .
وبهذه الأمثلة التي طفى فيها الآثر الاجتماعي على الآثر الجغرافي تدرك الحافظ لعلماء العربية على اسقاطها في الاحتجاج من العرب في الجاهلية والإسلام .

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) انظر مجلة مجمع اللغة العربية (بالقاهرة) ١٤١/٨ .

(٣) الشيراز البن المصفي ، والكامغ : ادام – انظر القاموس المحيط .

الفارابي بعد قوله المتقدم آنفًا على صناعة هؤلاء الأعراب وصفاتهم فقال : « كانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية ، وكانت أقواهم نفوساً وأقسامهم قلوباً وأشدتهم توحشاً وأمنعهم جانبأً وأشدتهم حمية وأحبهم لأن يغلووا ولا يغلووا ، وأعسرهم انتقاداً للملوك . وأجفاهم أخلاقاً وأقلهم احتمالاً للضييم والذلة ». (١) .

وستستطيع أن تجعل مرد الأمر كله – بعدهما تقدم لك – إلى الوثوق من سلامية لغة المحتاج به وعدم تطرق الفساد إليها ، وهذا هو الضابط في التصنيف الزمانى والمكاني اللذين مرا بك ، فأنت تعلم إسقاط العلماء الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت وعدى ابن زيد العبادي (٢) . وحتى الأعشى عند بعضهم ، لمخالطتهم الأجانب وتآثر لغتهم بهذه المخالطة ، حتى حمل شعرهم عدداً غير قليل من ألفاظ ومصطلحات لا تعرفها العرب ، وكل

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) إسقاط الاحتجاج في اللغة لا يؤثر في الشاعرية ؟ وعلى هذا ينبغي أن يفهم انكار القاضي الحرجاني زعم الاصمعي :

(زعم الاصمعي ان العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد ، لأن الفاظهما ليست بتجديبة) ، وكيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء وهذا الخطأ يسأل : من أشعر الناس فيقول : الذي يقول وأنشد لأبي دؤاد :
لا أعد الإقتار عدماً ولكن فقد من قد ززته الإقتار ... الخ الآيات »

الوساطة ص ٤٩ .

هذا ومن العلماء من لا يحتاج بغير الجاهلين وقد قال الاصمعي : « جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتاج بيت إسلامي » .

هؤلاء شعراء جاهليون (١) ؛ بينما يذهب فريق إلى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفى في القرن الثالث للهجرة ، حتى نص الإمام أحمد بن حنبل على أن (كلام الشافعي في اللغة حجة) (٢) لسلامة نشأته وتقلبه في البيئات العربية السليمة . قيل لبشار : «ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه» . قال : «ومن أين يأتيني الخطأ؟ ولدت هنا ونشأت في حجور ثمانين شيئاً من فصحاءبني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ؛ فمن أين يأتيني الخطأ» (٣) .

وكلمة بشار هذه دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة من اللحن لزمنه في المئة الثانية للهجرة .

ويعجبني كثيراً قول ابن جي في هذا الموضوع في باب (ترك

(١) مع هذا لا بد من بعض التسامح فإن التدقق والتفقي لا يسلم عليهما كثير من كلام المخج بهم : هذا الكميـت والطـرماـح روـي أنهـما كانـا «يسـلـان العـجاـج عنـ الغـرـيب ثمـ يـرـاهـ فيـ شـعـرـهـماـ موـضـوعـاـ فيـ غـيرـ موـاضـعـهـ ، فـقـيـلـ لهـ : «ولـمـ ذـاكـ!» قالـ : «لـأنـهاـ قـرـوـيـانـ يـصـفـانـ ماـ لمـ يـرـياـ فـيـ غـيرـ موـاضـعـهـ وـأـنـ بـدـويـ أـصـفـ ماـ رـأـيـتـ فـأـصـفـهـ فيـ موـاضـعـهـ .» - الأـغـانـيـ ١٧/٢ـ بلـ انـ الـاصـعـيـ كـانـ يـقـولـ فـيـ الـكـيـمـتـ : «جـرـ مـقـانـيـ مـنـ جـرـ اـمـيقـ (عـجمـ) الـشـامـ لـاـ يـحـتـجـ بـشـعـرـهـ» وـيـنـكـرـ موـاضـعـ منـ شـعـرـ الطـرـماـحـ وـيـلـحنـ ذـاـ الرـمـةـ . - اـنـظـرـ الوـاسـطةـ للـقـانـيـ الـجـرـجـانـيـ صـ ٩ـ . بلـ ذـهـبـ الـجـرـجـانـيـ فـيـ بـابـ (اـغـالـيـطـ الشـعـرـاءـ صـ ٤ـ مـنـ الـوـاسـطةـ) إـلـيـ أـنـهـ لـاـ تـوـجـدـ قـصـيـدةـ وـاحـدـةـ مـنـ كـلـ تـلـكـ الدـوـاـوـيـنـ الـجـاهـلـيـةـ وـالـاسـلـامـيـةـ «تـسـلـمـ مـنـ بـيـتـ اوـكـثـرـ لـاـ يـكـنـ لـعـائـبـ القـنـحـ فـيـ» اـهـ . وـماـ أـشـهـ هـذـاـ بـالـحـقـ .

(٢) الـاقـرـاحـ صـ ٢٤ـ .

(٣) الأـغـانـيـ ٢٦/٣ـ طـبـعةـ السـاسـيـ .

الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) :

« علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر . وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاد عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها ، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا لأننا لا نكاد نرى بدويأً فصيحاً ، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نجد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه .. » (١) .

نشأة النحو

ما مضى لك بيانه من أحداث اللحن حمل القوم على الاجتهد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم ، فشرعوا يتكلمون في الاعراب وقواعدة حتى تم لهم مع الزمن هذا الفن .

(١) المصادف ٢/٥ ثم ذكر ابن جني أدلة على فساد سليقة الاعراب في زمانه فقال : « وقد كان طرأ علينا أحد من يدعي الفصاحة البدوية ويتبعده عن الضفة الخضرية ، فلتقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تباهياً حسن في التفوس موقعه إلى أن أشدني يوماً شرعاً لنفسه يقول في بعض قوافيه (أشؤها . وأدؤها) (بوزن أشعها وأدعها) فجمع بين المزتين كما ترى . واستائف من ذلك مالا أصل له ، ولا قياس يسوغه ، نعم وأبدل إلى المهز حرفاً لاحظ له في المهز ، بضم ما يجب ، لانه لو التقى همزتان عن وجوب صنعة للزم تغير إحداهما . فكيف أن يقلب إلى المهز قلباً ساذجاً عن غير صنعة ما لا حظ له في المهز ، ثم يتحقق المزتين جميعاً ! هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد به مثله سعاع .. الخ .

والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رؤوسه بتزعيته السمعاوية والقياسية كلهم بصريون .

أول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٧ هـ .

وقيل إن علي بن أبي طالب ألقى على أبي الأسود شيئاً من أصول هذا النحو ثم قال له: « انح هذا النحو » فسمى الفن نحواً . وقيل إن أول من تكلم فيه: نصر بن عاصم المتوفي سنة ٥٨٩ هـ .

وقيل عبد الرحمن بن هرمز المتوفي سنة ١١٧ هـ .

وقيل لم يصل إلينا شيء عن أحد قبل يحيى بن يعمر المتوفي سنة ١٢٩ هـ وابن أبي إسحاق الحضرمي المتوفي سنة ١١٧ هـ .

وقيل ... الخ .

ومن يقرأ بامعان ترجمة أبي الأسود الدؤلي في (تاريخ دمشق لابن عساكر) مثلاً ، ثم يفكر في توارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك ، فالرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر ، وبديهية نيرة ، ثم هو بعده بلين أربيب مرن الذهن ، وحسبك اختراوه (الشكل) (١) الذي عرف

(١) اختار أبو الأسود كتاباً وأمره أن يأخذ المصحف وصيغة يخالف لون المداد وقال له : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضمت ففي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجمل مكان النقطة نقطتين » فهذا نقط أبي الأسود . - أخبار النحوين البصريين لأبي سعيد السيراني « ص ١٦ » « المطبعة الكاثوليكية في بيروت » . وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٩/٧ . والالفهرست لابن النديم ص ٦٠ .

وهذا سبب اطلاق الفتح والكسر والضم على الحركات المعروفة فيما أرى ، إذ كان أبو الأسود أول من استعملها . أما السكون في هذا المصحف فعلامته التجدد من العلامة .

بنقط أبي الأسود للدلالة على الرفع والنصب والجر والتنوين ، وهو ما أجمعوا عليه قدماً ولم يشك فيه حديثاً أحد . و (الشكل) أعود على حفظ النصوص من حدود النحو ؛ ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن ، وكان الخطوة الأولى إلى النحو كما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين (١) .

وي Finch أبو الطيب اللغوي على أن أبي الأسود وضع النحو ليتعلم بنو زياد (٢) . « و اختلف الناس إليه يتبعون العربية و فرع لهم ما كان أصله فأخذ ذلك عنه جماعة » . وليس يعني هنا تحرير هذه الأولية بتفصيل (٣) ، لكننا لأنرى

(١) ضحي الإسلام ٢٨٧/٢ وانظر مراتب النحوين ص ١٠
(٢) مراتب النحوين ٨ ، ١٠ .

(٣) وما أقرب رواية أبي الفرج من الواقع والاعتدال حين سلسل لنا الخطوات في عبارة فيها كثير من الاقتصاد قال راوياً عن المدائني :

« أمر زياد أبي الأسود الذي أتى ينقط المصاحف فنقطها ، ورسم من النحو رسوماً ثم زاد فيها بعده عنبرة بين مدان ثم جاء عبد الله بن أبي إسحاق المضرمي وأبو عمرو ابن العلاء فزادا فيه ، ثم جاء الحليل بن أحمد الأزدي وكان صلبة فلجبه ، ونجم علي ابن حمزة الكسائي مولى بي كاهل من أسد فرسم للكوفيين رسوماً فهم الآن يعلمون عليها ». الاغاني ١١/١٠١ ، وسيمر بك بعض تفصيل عن هؤلاء الأعلام ، ولا بأس في تتبعهم إلى أن أبي الفرج نص في أول ترجمته لأبي الأسود ، على أنه « كان الأصل في بناء النحو وعقد أصوله » .

وابن سلام يقول : أول من استن العربية وفتح بابها واتجه سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود » طبقات فحول الشعراء ص ١٢ طبعة دار المعارف .

والزيدي الاندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ رواية مقيدة يسلسل فيها الخطوات الأولى في كتابه طبقات النحوين واللغويين ص ٢١٥ قال :

(ابن أبي سعد قال حدثنا علي بن محمد الهاشمي قال : سمعت أبي يذكر قال : كان به ما وضع أبو الأسود النحو أنه مر به سعد وكان رجلاً فارسياً قدم البصرة مع أهله ، وكان يقود فرسه فقال : مالك ياسعد ! لا تركب ! فقال « فرسي ضال » فضحك به من حضره . قال أبو الأسود : « هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه وصاروا لنا إخوة ، فلو علمناهم الكلام ، فوضع باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه قال أبي : « فزاد في ذلك الكتاب رجل منبني ليث أبواباً ، ثم نظر فإذا في كلام العرب مالا يدخل فيه فأقصى عنه ، فلما كان عيسى بن عمر قال : « أرى أن أضع الكتاب على الأكثر وأسمى الأخرى لغات . فهو أول من بلغ غايتها في كتاب النحو » .

بدأ من أن نشير إلى أن اتفاقهم على أنه واضح (الشكل) وأن شبه الاجماع على أنه أول من تكلم بالنحو وأنه كان يتتصدر لإعراب القرآن» (١) وأن هؤلاء للذين تزعم لهم الأولية في بعض الأقوال : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وعنisse الفيل ، وميمون الأقرن ، . كلهم تلميذ أبي الأسود أو تلميذ تلميذه ، عنه أخذوا العربية القراءة بالبصرة ؛ كل أولئك مع ما عرف عن أبي الأسود من ذكاء وقاد ، وفکر متحرك ، وعقل وروية ، . يجعلنا نقطع بأنه وضع أساساً بني عليه من بعده . ولكن ، ما هو هذا الأساس ؟

لسنا نجد لهذا السؤال جواباً يشفي الغليل ، فصحيحية أبي الأسود تعرف عند النحاة بـ (التعليق) ، فإذا أردنا معرفة محتوياتها لم نحظ بما يطمأن إليه (٢) ، بل فات معرفتها العلماء منذ المئة

(١) في ترجمة حر بن عبد الرحمن القاري النحوي أنه : سمع أبا الأسود وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة . - بغية الوعاة ص ٢١٥ .

(٢) أما ابن الانباري فقد اطمأن إلى خبر ذكره في أول كتابه «نزهة الالباء في طبقات الأدباء» حين روى أن علي بن أبي طالب دفع إلى أبي الأسود رقة فيها : «الكلام كله اسم و فعل و حرف ، فالاسم ما أنشأ عن المسمى ، والفعل ما أنشأ به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم أن الأسماء ثلاثة : ظاهر و مضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاصل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر . . . » ثم يذكر ابن الانباري أن أبا الأسود وضع أبواب «العطف ، والتعدد ، والتعجب ، والاستفهام» إلى أن وصل إلى باب إن وآخواتها ماخلاً لكن ، فلما عرضها على علي أمره بضم (لكن) إليها ، وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه ، » اه .

ولست أدرى هل ابقت أمور الخلافة والمحروب والفتن على وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتقييحيها واعتراضها ! ولعل الاستاذ أحمد أمين لم يكن بعيداً من الصواب حين روى هذا الخبر فلقي عليه بما يأني :

« وكل هذا حديث خرافية فطبيعة زمن علي وابي الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقسيمات الفلسفية ، والعلم الذي ورد اليانا من هذا المصدر في كل فرع يتناسب مع القطرة »

الرابعة مع شدة حرصهم عليها فيروي ابن النديم خبراً طريفاً عن رجل جماعة للكتب له خزانة لم ير لأحد مثلها بما جمعت من خطوط العلماء الأولين ونواذر الكتب والرقاء فهني متحف كل ما فيه نادر وثمين ، قال الذي شاهدتها :

«... ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي ﷺ ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو

ليس فيه تعريف ولا تقسيم ، إنما هو تفسير آية أو جمع لا حديث ليس فيها ترتيب ولا تبوب ، فاما تعريف واما تقسيم منطقى فليس في شيء مما صر نقله اليانا عن عصر علي وابي الاسود وانخشى ان يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين أرادوا ان ينسبوا كل شيء إلى علي واتباعه » - ضحى الاسلام ٢٨٥/٢

وانا مع عدم استبعادي كثيراً صدور كلام مثل هذا عن ابي الاسود بعد موت علي بنين حين اعتزل العمل الرسمي وفرغ لمثل هذه الشؤون ، لا أطمئن إلى ما روى ابن الأنباري .

حتى ابن فارس الذي ذهب إلى قدم النحو قبل زمن ابي الاسود بكثير لا ينكر إمامته وتجديده فقد قال : «فإن قال قائل : لقد تواترت الروايات بان ابا الاسود اول من وضع العربية وأن الخليل اول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانوا قدّيماً وأتت عليهما الايام وقلاد في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الاممان ». الصاحبى في فقه اللغة ص ١٠ ونقله بنصه السيوطي في المزهر ٣٤٥/٢ .

لكنني اقف عند قوله المبرد «قرأت اوراقاً من كتابي عيى بن عمر فكان كالاشارة إلى الاصول» واقول إذا كانت كتب الطبقة الثالثة هذه كالاشارة إلى الاصول فما حال نحو ابي الاسود ! (توفي ابو الاسود سنة ٦٧ وعيى بن عمر سنة ١٤٩ھ) . انظر نزهة الالباء .

عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهي أربع أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان التحوي ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل .

ثم لما مات الرجل فقدنا للقمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبراً... على كثرة بحثي عنه » (١) .

فليسعنا من الأسف والخسارة على تعليقه أبي الأسود ما وسع العلماء قبلنا بألف عام إذ لا سبيل إلى المعرفة الشافية مع هذا الغموض .

أخذ عن أبي الأسود : يحيى بن يعمر ، وعنترة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعطاء بن أبي الأسود ،

(١) الفهرست ص ٦١

ثم تظهر فجأة بعد أكثر من مئة سنة عند ابراهيم بن عقيل القرشي - ٤٧٤ هـ فيزعم لأصحابه من أهل الحديث أن عنده تعليقة أبي الأسود التي القاها عليه علي بن أبي طالب ، ويعدهم بها ويستجزرونها ويرجّهم فلا يظفرون منه بطائل ، ثم يكتبها عنه - فيما رووا - ففيه مالكي اسمه ابو العباس أحمد بن منصور « وإذا به قد ركب عليها إسناداً لا حقيقة له ... وهذه التي سماها التعليق هي في أول أمالى ابي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي التحوي نحو عشرة اسطر فجعلها هذا الشيخ ابراهيم قريباً من عشر اوراق . » اهـ . انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

قلت : ليس في أمالى الزجاجي المطبوعة من هذه التعليقة أثر ما ، وابن عساكر على حق حين يتوقف في توثيق ابراهيم بن عقيل بعد هذا التدليس .

وأبو نوفل بن أبي عقرب (١) ، وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة ، ثم نشأ بعد نحو مئة عام من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلم بها ، فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى بمدرسة الكوفة (٢) .

وهذا جدول (٣) يوضح لك تتابع هذه الطبقات إلى المئة للثالثة للهجرة وترى فيه أن أعلام الكوفة كلهم أخذوا عن أئمة البصريين بأخره :

(١) إنباه الرواة ٣٨٢/٢

(٢) على أن هناك من ذهب إلى وجود مدرسة ثلاثة هي مدرسة المدينة ، وأن رأسها عبد الرحمن ابن هرمز الذي مر بك (ص ٢٧) أنه أحد الذين نسب إليهم أولية الكلام في النحو . وهذا شيء لم يشتهر ، لكن القبطي ذكر في هذا كلاماً أنا مثبته لفائدة فقد جاء في إنباه الرواة في ترجمته :

قال أهل العلم : إنه أول من وضع علم العربية والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأظهر هذا العلم بالمدينة ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو وأساب قريش ، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه ، ولا نقلوه إلا عنه ، وإليه أشار ابن برهان التحوي في أول شرحه في (المعنى) بأن قال : « النحاة جنس تحته أنواع : مدنيون ، بصريون ، كوفيون » ... ويروي أن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ... مات سنة ١١٧ ». - إنباه الرواة ١٧٢/٢

هذا واحد وأما الثاني فبشكست الذي مر بك خبره ص ١٣ .

(٣) عن ضحي الاسلام ٢٨٤/٢ . وتكرر الاسم معناه تعدد مشايخه صاحبه أما الاعلام المدرجة أسماؤهم بخط رقعي فهم كوفيون ، والباقيون بصريون .

أبو الأسود الدؤلي (- ٦٧٦)

عنبة الفيل ميمون الأقرن نصر بن عامر (- ٨٩٤) يحيى بن يصر (- ١٢٩)

أبو عمرو بن العلاء (- ١٥٠) ابن أبي إسحاق الم拂مي (- ١١١)

عبي بن عمر التقفي (- ١٤٩)

أبو زيد يونس (- ٩٤٨) عبي بن عمر الأخفش (- ٧٧٧) أبو معشر الرواسي

سيويه (- ١٨٠) أبو زيد (- ١٥٢) الكنائي (- ١٨٩) يونس سيويه أبو زيد المليلي بن أحمد (- ١٠٠) أبو معشر الرواسي

الفراء سيويه أبو زيد الكنائي (- ١٤٤) الكنائي الفراء (- ٧٧٠) الكنائي الفراء

المدرستان الاوليان

- ١ - مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . ٢ - نشأة الخلاف واحتكار المذهبين .
٣ - الفروق بينهما . ٤ - أثر العصبية في الخلاف . ٥ - كتب الخلاف .

أول من ذكر من أعلامها أبو الأسود الدؤلي ، وتلاميذه هم الذين نشروا النحو في البصرة ، وترجح على أيديهم وأيدي تلاميذهم طبقات من أعلام النحو رفعوا بناء المذهب البصري على أساس متينة وقواعد محكمة .
وإليك شيئاً عن هذه الطبقات مرجحاً الكلام على بيئه البصرة وبيئة الكوفة وطبيعة عربهما وأعرابهما إلى حين الكلام على الفروق بين المذهبين ، لتقابل البيئتين وأهليهما بعضاً ببعض

الطفة الأولى من البصريين

فأما عنبرة فقد « تعلم النحو وروى الشعر وظرف (١) حتى صار - على ما يروى عن الخليل - أربع أصحاب أبي الأسود » (٢)
وأما ميمون فرأس الناس بعد عنبرة ويررون عن أبي عبيدة قوله : « أول من وضع العربية أبو الأسود ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبرة الفيل ، ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي » (٣)
وأما نصر بن عاصم الليثي فكان أحد القراء والفصحاء ، وأخذ عنه

(١) أخبار النحوين البصريين ص ٢٤ (٢) المزهر ٣٩٨/٢

(٣) أخبار النحوين البصريين ص ٢٥ .

أبو عمرو بن العلاء والناس» قال عنه الزهرى : «إنه ليفلق بالعربية تفليقاً» ، بل منهم من ذهب إلى أنه أول من وضع العربية» (١) .

وأما يحيى بن يعمر فقد عرفت علمه وفضاحته ، وعرفت شأنه مع الحجاج ، ووصفوه بالعلم والأمانة ، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما» (٢) .

والذي يجب التنبيه إليه قبل الانتقال إلى الطبقة الثانية أن تلميذى أبي الأسود : نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر خطوا الخطوة الكبرى التي تلت خطوة أبي الأسود في ضبط الكتابة العربية ، إذ ابتكرتا نقط الحروف أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة كالباء والياء والنون ، فعلا ذلك باشارة الحجاج على ما ذكروا ، وبعد تردد منها في أن يزيدا شيئاً على رسم مصحف عثمان ، ثم بان لهما صواب الاصلاح بعد رؤية ، فأقلاها عليه .

بل إن ليحيى هذا أولية في التأليف ، فقد ذكروا أنه اتفق هو وعطاء بن أبي الأسود بعد موت أبيه «على بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه .. ولما استوفيا جزءاً متوفراً من أبواب النحو نسب بعض الرواية اليهما أول من وضع هذا النوع» (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٢١ ، ٢٠ ، والالفهرست لابن النديم ص ٥٩ .

(٢) ص ٩ من هذا الكتاب وص ٥٢ من الفهرست وص ٢٢ من أخبار التحويين البصريين .

(٣) إنبأه الرواة ٤٨٠/٢

ولكن المشهور أن نصراً هو الذي ميز بين الحروف المتشابهة بال نقط المتداول حتى اليوم ، وغير ترتيب (الأبجدية) إلى الترتيب المعروف ، ثم ألغى نقط أبي الأسود مستبدلاً به (الشكل الحالي) الذي هو أبعاض الحروف (او ي). فنقط أبي الأسود (إعراب) لإبانته عن حركة آخر الكلمة ونقط نصر (إعجام) لإزالته العجمة عن الحروف وكان يتبس بعضها بعض « (١) .

الطبقة الثانية من البصريين

وفيها أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الخضرمي فأما الأول فمن أشراف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة والنحو ، وهو أحد القراء السبعة ، قال فيه أبو عبيدة : « أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب وللشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف » كان مرجع الناس في عصره ، وخير ما يعبر عن مكانته في عيون معاصريه حديث سفيان بن

(١) جاءت امرأة إلى الفرزدق تستنجد به قائلة : « إن ابني مع تميم بن زيد القيني بالسند وقد اشقت إليه ، فإن رأيت أن تكتب إليه في أن يقفله إلى » فكتب إلى تميم :

تميم بن زيد لا تكون حاجي	بظهر فلا يخفى على جوابها
أنتي فعاذت يا تميم بقالب	وبالغيرة السافى عليه تراها
فهب لي « خنيساً » واتخذ فيه منة	أبه لام لا يسوغ شرابها

فلمما ورد الشعر على تميم أشكّل عليه الاسم (لفقدان النقط على الحروف) فقال : « أقفلوا كل من اسمه خنيس أو حبيش أو حنيش ، أو حشيش ، أو خشيش » فعدوا فكانوا ثمانين رجلا . - الأضداد لابن الأنباري ص ٢٥٦ (لاتكونن حاجي بظهر = لا تطرحها) .

عيسى ، قال : «رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله لقد اختلفت علي القراءات بقراءة من تأمرني ؟ فقال : بقراءة أبي عمرو بن العلاء» (١) وأخذ عن نصر بن عاصم المتقدم ذكره ، وعن يحيى بن يعمر ، وعن قارئ مكة عبد الله ابن كثير . وأقام بين البدو أربعين سنة كما قرر اليزيدي (ص ١٧١ مجالس العلماء للزجاجي) .

«وأخذ عنه عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأخفش فكان هؤلاء الثلاثة أعلم الناس وأفصحهم» (٢) وأما عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فقد كان يلحن الفرزدق ، وهو في زمن أبي عمرو والناس يفضلون بينهما فيقدمون أبا عمرو في اللغة ويقدمون ابن أبي إسحاق في النحو وهو «أعلم أهل البصرة وأعقلهم» ، فرع النحو وقاسه ، وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه (٣) ويدركون أنه أول من علل النحو .

ويمكن أن يلحق بهذه الطبقة عيسى بن عمر التفقي مولى خالد

(١) بغية الوعاة .

(٢) مراتب النحوين ص ٢٣ .

(٣) عن مراتب النحوين ص ٢٨ والمزهر ٣٩٨/٢ ، وشهادة يونس بن حبيب فيه : أنه «لو كان في الناس اليوم من له ذهنه ونفاذة كان أعلم الناس» - طبقات فحول الشعراه ص ١٤ . هذا والليزيدي كلام يشير إلى نصيب عيسى بن عمر في تدريب النحو يقول فيه «وضع أبو الاسود باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه ... فزاد رجل منبني ليث أبواباً ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه ، فلما كان عيسى ابن عمر قال : «أرى أن أضع الكتاب على الأكثر وأسمى الأخرى لغات فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو ... وضع كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر المكمل .» طبقات النحوين واللغويين ص ١٥ .

ابن الوليد ، أخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، وعُد في القراء البصريين وهو إمام في العربية والنحو ، ولعله أول من ألف فيهما كتاباً جاماً ، وقد اشتهر اسم كتابيه دون أن يصل اليانا منهما خبر أو أثر ، وللغرير أن تلميذه الخليل بن أحمد قرأهما ووعاهما ، وأعجباه حتى جعل مؤلفهما مجدد هذا الفن والمغفي على آثار من سبقه قال :

ذهب للنحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (إكمال) وهذا (جامع) فهما للناس شمس وقمر
ثم « فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم يقعوا إلى
أحد علمناه ، ولا خبر أحد أنه رآهما » ، وهذا السيرافي وليس
بينه وبين زمن المؤلف إلا مئتان من السنين يقول : لم يقعوا اليانا
ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما » (١) فان تكون نسبة البيتين
إلى الخليل صحيحة يكن اختفاء هذين الكتابين من أغرب
الأمور في تاريخ النحو .

* * *

إذا نحن انتقلنا إلى الطبقة التي تلي هذه كنا إزاء ما سموه

(١) انظر الفهرست لابن النديم ٦٢ وبغية الوعاة . اما ابن الانباري في نزهة الالباء فقد نقل عن المبرد انه قال : قرأت اوراقاً من احد كتابي عيسى بن عمر ، وكان كالاشارة إلى الاصول » . وبين هذه الكلمة الدالة على انه خطوة ابتدائية وتقرير الخطيب بون كما ترى . - هذا وينذرون أنه كان فصيحاً ويقتصر أحياناً ، أمر واي العراق بحمله إليه ودعا بالخداد فأمر بتقييده ، فقيل له لا بأس عليك ، إنما أرادك الأمير لتهذب ولده . « قال : « فا بال القيد إذا » فذهبت بالبصرة مثلاً . وله الحملة المأثورة في كتب البلاغة حين سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال « مالكم تأكلتم على كنكاً كنكم على ذني جنة ، افرتفعوا عني . » - انظر بغية الوعاة وأخبار النحويين البصريين ص ٣٢ .

بالمذهب الكوفي ، فقد تتعلمَّ على عيسى بن عمر هذا : الخليل وسيبويه وأبو زيد الأنصاري أممَّة البصريين الأعلام ، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين وخلفه في ذلك تلميذاه للكسائي والفراء .

ولسنا نفيض في الكلام عليهم فكلُّهم مشهور ، ولكننا نذكر بالنوادي التي تعنىنا منهم بكلمات :

فأما الخليل « فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، هو أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها ، وعمل أول (كتاب العين) المعروف المشهور الذي به تهيأ ضبط اللغة » (١) إلى نواحٍ أخرى له مجيدة مشرفة ليس من غرضنا هنا الإشارة إليها . وقد اشتهر نحط من آرائه في باب القياس . « وهو أستاذ سيبويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه . وكلما قال سيبويه : سأله ، أو قال « قال » من غير أن يذكر قائله فهو الخليل ». (٢) ونفع الله به الناس وعاش من قناعته وعرفه وترفعه في عزة دونها عزة الملوك ، وصدق النضر ابن شميل في قوله : أقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال » (٢) .

وأما أبو زيد الأنصاري فقد كان ثقة صدوقاً راوية ، وهو وإن قدم في النحو على الأصممي وأبي عبيدة - غابت عليه

(٢) بغية الوعاة .

(١) أخبار النحوين البصريين ص ٣٨ .

اللغة والنوادر والغريب ، وحولها يدور أكثر مصنفاته (١) .
وندع سيبويه - لشهرة أمره وكتابه وشيوخه وتلاميذه - إلى
أبي جعفر للرؤاسي رأس الكوفيين .

(١) بنية الوعاء .

مدرسة الكوفة

ابو جعفر الرؤاسي

طلب العلم في البصرة على أئتها ،قرأ على أبي عمرو بن العلاء ، وعلى عيسى بن عمر الثقفي ، لكنه لم يقارب أحداً من تلامذتهم فلم ينبه وعاش بالبصرة غير معروف (١) وكان أول كوفي ألف في العربية ، وكتابه «الفيصل» عرضه - فيما ذكروا - على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا إليه ولا جسر على إظهاره لما سمع كلامهم ، أما هو فيزعم أن الخليل طلب الكتاب فأطلاعه عليه ، «فكل ما في كتاب سيبويه : قال الكوفي كذا» فانما عن الرؤاسي هذا (٢) وزعم جماعة من البصريين أن الكوفي الذي يذكره الأخفش في آخر المسائل ويرد عليه الرؤاسي (٢).

(١) انظر معجم البلدان ١٢٣/١٨ . وأخذ عن زهير الفرقبي « - ١٥٥ » الذي تعلم على ميمون الأقرن أحد أصحاب أبي الأسود - انباه الرواة ١٨/٣ ، ١٩ .

(٢) بنية الوعاء . وذكره أبو الطيب اللثوي في عداد من أخذ عن أبي عمرو فقال : « عالم أهل الكوفة ، وليس بنظير هؤلاء الذين ذكرنا ولا قريب منهم ... أخبرنا أبو حاتم قال : كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء ». - مراتب التحويين ص ٢٤ .

ويعد من قراء الكوفيين وسُرِّي من أسماء كتبه الموضوعات
التي عني بها :

كتاب التصغير ، الأفراد والجمع ، الوقف والابداء ،
معاني القرآن .

ولما رجع إلى الكوفة وجد فيها عمها معاذ بن مسلم المراء
ـ ١٨٧ ـ مرجع الناس في العربية وعني بالصرف ومسائله
خاصة ، وتبعد في هذه العناية من قرأ عليه من الكوفيين ، حتى
قيل إنهم فاقوا البصريين فيها ، ومن هنا عدتهم بعض العلماء
واضعى علم الصرف .

وخرج بالرؤاسى تلميذاه المشهوران : الكسائى والفراء .

أما الكسائى فأنت تعرف أنه أعمجمي الأصل وأحد القراء
للسבעة وإمام الكوفيين في العربية ، أخذ عن يونس أحد أئمة
البصرة وجلس في حلقة الخليل ، ثم خرج إلى بوادي نجد
والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب « فأنفق خمس عشرة
قنية حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ . فقدم البصرة
فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس . فجرت بينهما مسائل
أقر له فيها يونس وصدره في موضعه » (١) .

ثم انتقل إلى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدبًا للأمين
والمأمون ، ونال الحظوة وأقبلت عليه الدنيا : يخدمه ولية العهد ،
وي يعني به ويعوده الرشيد نفسه . ولما خرج للرشيد إلى الري

(١) بغية الوعاة .

اصطحب معه الكسائي و محمد بن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد : « دفت الفقه والنحو في يوم واحد » (١) .

وأما القراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على الرؤاسي ، ثم لازم الكسائي في بغداد . والذي حثه على الخروج إلى بغداد شيخه الرؤاسي .

ولندع القراء نفسه يحدثنا بأول أمره ببغداد قال :

قال لي الرؤاسي : « قد خرج الكسائي (إلى بغداد) وأنت أسن منه » فجئت إلى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي ، فأجابني بخلاف ما عندي ، فغمزت قوماً من علماء الكوفيين كانوا معى ، فقال : « مالك قد أنكرت ؟ لعلك من أهل الكوفة »؟ فقلت : « نعم » فقال : « الرؤاسي يقول كذا وكذا .. وليس صواباً ، وسمعت العرب تقول كذا وكذا ... حتى أتى على مسائلي فلزمه » ١٥ (١) .

والطريف تشد البصريين والковيين في قراءة القراء على يونس بن حبيب البصري أستاذ سيبويه تشداداً على غير المتظر ، فالkovيون يزعمون أنه استكثر عنه والبصريون يدفعون ذلك ثم كان القراء « زائد العصبية على سيبويه وكتابه تحت رأسه » صنف « معاني القرآن » الذي قال فيه مادحه « لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه » (٢) .

(١) بغية الوعاة (٢) الفهرست ص ٩٦ .

و كتبه التي ترکها تدور حول مسائل من اللغة والنواذر والصرف
والنحو والقرآن . أما كتابه الكبير في النحو المسمى بـ « الحدود »
فقد ذكروا أنه يشتمل على ستة وأربعين حداً في الاعراب . ويعنينا
منه هنا قصته فهي تدل على بدع عجيب عرف به بعض النحاة
وأثر في سير هذا العلم أثراً سيئاً ، ذلك هو الإغراب
والتعقييد ، قالوا :

كان السبب في إملائه الحدود أن جماعة من أصحاب الكسائي
صاروا إليه وسألوه أن علي عليهم أبيات النحو ففعل ، فلما كان
المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : « إن دام هذا على هذا علم
النحو الصبيان ! ولوجه أن يُقعد عنه » فقعدوا فغضب وقال :
« سألوني للقعود فلما قعدت تأخروا ، والله لأملين النحو
ما اجتمعاثنان » فأملأ ذلك ست عشرة سنة (١) .

وأنا حائر في التوفيق بين نزعة التسهيل والتبسيط هذه التي في
القصة وقولهم في ترجمتها « كان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته ،
يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة » (١) .
وتكتفينا هذه اللماعة عن رجال المدرستين (٢) محاولين تتبع
الخلاف ومعرفة طبيعته .

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) نشر « مراتب التحويين » لأبي الطيب الغوري المتوفى سنة ٣٥١ ، وجاء فيه – بعد أن
سرد تراجم أعيان البصريين ثم الكوفيين – قوله :
« والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أنتهم في وقتهم ، وقد بينا منزلتهم عند أهل البصرة ،
فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤسائهم علماء معظموون غير مدافعين في المصريين جميعاً ،
ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأنصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية ، ولو كان
لا فخرروا به ، وباهوا بامكانه أهل البلدان ، وأفطروا في إعظامه كما فعلوا بمحنة الزيارات . . .
يتخونه إماماً ممعظماً وليس يحكي عنه شيء من العربية ولا النحو ، وإنما هو صاحب
قراءة ، وأما عند البصريين فلا قدر له . » ص ٢٦ .

(٢) تأة المحرف وامتناع المدرسين

أول ما يعرف من الخلاف بين البصريين والковيين ما أثبتته سيبويه في (الكتاب) من حكاية أقوال (الكوفي) أبي جعفر الرؤاسي على ما علمت آنفًا . والظاهر أن مرافقة الرؤاسي للخليل في القراءة على عيسى بن عمر جعلت بينهما نوعاً من الأنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسي كتابه ، فروى منه بعض أقوال تلميذه سيبويه ، فأثبتها هذا في كتابه .

ولم يكن في هذا الخلاف ولا في غيره مما حدث بين البصريين أنفسهم يومئذ ، أكثر من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة وللدليل عليها أحياناً . فأنت كثيراً ما تجد سيبويه يوزد لشبيخيه يونس والخليل أقوالاً يخالفها فيقول : (... و Zum الخليل) ، (... و Zum يونس) .

ولم تدخل الدنيا بين المشهورين من رجال هذه الطبقة ، فالخليل والرؤاسي مثلاً كلاهما صالح عفيف ، ومتى خلت المناقشات العلمية مما يورثها من حواجز المادة أو الجاه بقيت هادئة جميلة صافية .

فلما قرئ العباسيون الكسائي وتلاميذه وخصوهم بتربية أولادهم وبالإغراق عليهم إذ كان أهل الكوفة بالجملة أخلص لهم

وأحسن سابقة معهم على عكس أهل البصرة ، اجتهد المقربون في التمسك بدنياهم التي نالوها ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علمًا فحالوا بينهم وبين النجاح المادي أو المعنوي بكل ما يستطيعون من قوة ؛ وإذا كان لبصري كالأصمسي مثلًا حظوة عند خليفة ولم يقدروا على إبعاده ماديًّا ، اجتهدوا في الغض من علمه .

وأنا أعرض أنماطًا من خلافهم في المجالس الرسمية تفصح عن العصبية والحدة وحب النيل من المنافس ، أعرض ذلك ليكون مدخلاً للكلام على المذهبين بعد أن عرفنا رجالهما الأولين . ولا تستغربن أن تكون الحدة والعصبية أظهر على الكوفيين ، وحب الغلبة عندهم أشد ، فهم عن دنياهم وجاههم يدافعون ، إذ علموا علم اليقين أن علمهم إذا علم البصريين قليل (١) ، ولذا كان الخطر من هؤلاء ماثلاً أمام الكوفيين ، ولعین الكسائي منهم خاصة ، ولم يرو عن كوفي عنف مثل عنف الكسائي هذا ، ولا حرصن على الاجهاز على الخصم المنافس كما روی عنه ، واليك الشواهد :

(١) قال أبو حاتم : « لم يكن لج夷 الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، - ولو لا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرقووا ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حرج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قد وفهم وإليه يرجعون ». مراتب التحويين ص ٨٤ .
هذا وقد علمت آنفًا أن الرؤاسي شيخ الكسائي أقام بالبصرة فلم يرتفع له فيها ذكر ، ولا عد علمه شيئاً إزاء علم البصريين . ومهما جعلت للبالغة نصيبياً في قول أبي حاتم فأنت مطمئن إلى ستر الكوفيين قصورهم عن منافسيهم بالشعب والسلطان الذي كان لهم .

بين الكسائي والأصمعي

حدث أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثُلْبَ أَحَدُ أَمْمَةِ الْكُوفَّيْنَ قَالَ :
كَانَ الْكَسَائِيُّ وَالْأَصْمَعِيُّ بِحُضُورِ الرَّشِيدِ، وَكَانَا مَلَازِمِنَ لَهُ
يَقِيمَانِ بِاقْمَاتِهِ وَيَطْعَنُانِ بِظُعْنَهِ ، فَأَنْشَدَ الْكَسَائِيُّ :
أَنَّى جَرَوْا عَامِرًا سَوْعِيًّا بِفَعْلِهِمْ

أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تَعْطِيُ الْعُلُوقُ بِهِ
رَعْمَانَ أَنْفَ إِذَا مَا ضَنَّ بِاللَّبِنِ
فَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : «إِنَّمَا هُوَ رَعْمَانٌ أَنْفٌ ، بِالنَّصْبِ» فَقَالَ لَهُ
الْكَسَائِيُّ : «اسْكُتْ مَا أَنْتَ وَذَاكَ ؟ يَجُوزُ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ
وَالْخَفْضُ : أَمَا الرَّفْعُ فَعَلَى الرَّدِّ عَلَى (مَا) لِأَنَّهَا فِي مَوْضِعٍ رَفِيعٍ
بِ(يَنْفَعُ) فَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ (أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ رَعْمَانٌ أَنْفُ) ، وَلِلنَّصْبِ
بِ(تَعْطِي) ، وَالْخَفْضُ عَلَى الرَّدِّ عَلَى الْهَاءِ لِتَيْ فِي (بِهِ) ». فَسَكَتَ
الْأَصْمَعِيُّ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِالْعَرْبِيَّةِ ، وَكَانَ صَاحِبَ لِغَةٍ ، لَمْ يَكُنْ
صَاحِبَ إِعْرَابٍ » (١).

(١) إِرْشَادُ الْأَرِيبِ ١٣/١٨٣ وَأَمَالِيُ الزَّجَاجِيِّ ص ٣٤ (المطبعة المحمودية التجارية بالازهر
بِمَصْرِ) . وَالْبَيْتَانُ لِأَفْنُونَ التَّقْلِيِّ (انْظُرْ المَفْضُلَاتِ لِلضَّبِّيِّ ٢/٦٣ طَبْعَةُ دَارِ الْمَعْرِفَةِ
بِالقَاهِرَةِ) .

العلوق : النافقة تفقد ولدها ينحر او موت ، فيسلخ جلدته ويختى تبناً ويقدم إليها
لترأمه (أي تعطف عليه) ويدر لبنيها فينتفعوا به ، فهي تشم وينكره قلبها فتعطف عليه
ولا ترسل اللبن ، فشبه ذلك بهذا .

والبيت مثل يضرب لم يدرك بلسانه كل جميل ولم يفعل منه شيئاً لأن قلبه منظوظ
على ضده ، كأنه قيل له : كيف ينفعني قولك الجميل إذا كنت لا تقني به . - اهـ عن
المصدر الأول يتصرف يسير .

هذا وقد علق ابن الشجري حين عرض هذه القضية بقوله :
«ولنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من حقيقة» ٣٢/١ .

عدوا الكسائي فائزًا في هذه الماظرة ، ولعل المجلس تقوض على ذلك ، ولكننا الآن لا نعده كذلك . فالاًصمعي راوية ثبت صدوق وهو في الرواية والأخبار أقوى من الكسائي ، والكسائي أورد وجوه الاعراب المحتملة ، أما الأصمعي فانما يرد صاحبه إلى الرواية (١) وشنان ما بين الأمرين .

وللأصمعي مجلس آخر مع الكسائي أمام الرشيد كالم له فيه الصاع صاعين وحكم له الرشيد حكمًا لزم الكسائي عاره :
 قال له الأصمعي وهما عند الرشيد : « ما معنى قول الراعي : قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخدولاً؟ »
 قال الكسائي : « كان محرماً بالحج » قال الأصمعي : « فقوله : قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يتع بکفن هل كان محرماً بالحج » ؟؟؟
 فقال هارون للكسائي : « يا علي إذا جاء الشعر فايال والأصمعي ». (٢) .

(١) بل إن المعن لينصر رواية الأصمعي ويرفض رواية الرفع « وصوب ابن الشجري إنكار الأصمعي فقال : لأن رئانها للبو بأنفها هو عطيتها أيام لاعطيه لها غيره ، فإذا رفع لم يبق لها عطية في البيت ، لأن في رفعه إخلاء (تطبي) من مفعوله لفظاً وتقديرأ ، والجر أقرب إلى الصواب قليلاً ؛ وإنما حق المعن والإعراب النصب .. انظر متن الليب بحث (أم). والكسائي مثل هذا التخطي مع عيسى بن عمر ألقى عيسى مسألة فذهب يوجه احتمالاته فقال عيسى : « عافاك الله ، إنما أريد كلام العرب ، وليس هذا الذي تأتي به بكلامها . »
 إنما الرواية ٣٧٧/٢ .

(٢) أخبار الحوادين البصريين ص ٥٩ - محرم أي لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل ، وقوله (محرماً) في كسرى يعني حرمة العهد الذي له في عنق اصحابه . هذا وقد سجلوا للكسائي طلبه المذلة من الأصمعي ، قال الأصمعي : « أرسل إلى الكسائي بأبي نصر وقال : « لست أعرض لك في الشعر والنثيب والمعاني فدعني والنحو » فوجئت إليه : « ما كلمنتك قط في النحو إلا بحجة أصحابي وقد تركت ذلك لك . » - إنما الرواية ٢٧٢/٢ .

٢ - بن الكسائي وسيبوه

قال الفراء : « قدم سيبوه على البرامكة فغم يحيى بن خالد لأن يجمع بينه وبين الكسائي وجعل لذلك يوماً ، فلما حضر تقدمت وابن الأحمر (١) فدخل فإذا بمثال في صدر المجلس فقعد عليه يحيى ، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم ، وحضر سيبوه فأقبل عليه الأحمر فسأله عن مسألة فأجابه فيها سيبوه فقال له « أخطأت » ، ثم سأله عن ثانية وثالثة كل ذلك يقول له « أخطأت » فقال سيبوه : « هذا سوء أدب » فأقبلت عليه فقلت : « إن في هذا الرجل حدة وعجلة ، ولكن ما تقول فيمن قال : « هؤلاء أبوون ، ومررت بأبين » كيف تقول على مثال ذلك من (وأيت) أو (أويت) فأجاب فأخطأ فقلت له : « أعد النظر ... ثلاث مرات تجيب ولا تصيب (٢) فلما كثر عليه ذلك قال : لست أكلمكم أو يحضر صاحبكم حتى أناظره ».

فحضر الكسائي فأقبل على سيبوه فقال : « أتسألني أم أسألك ؟ فقال : « بل سلني أنت ». فقال له الكسائي : « كيف تقول : قد

(١) هو علي بن الحسن الأحمر تلميذ الكسائي وخليفته على تعلميم أولاد الرشيد كاساني . وفي المغنى وحاشية الدسوقي عليه (١٢٩/١) أنه خلف الأحمر وهذا سهو منها رحمة الله ، إذ أن خلفاً بصري ولا تعرف له تلميذه على الكسائي ، بل أين هذا من هذا .

(٢) قال ابن هشام الانباري بعد شرحه هذه المسألة : وليس هذا مما يخفى على سيبوه ولا على أصغر الطلبة ولكنه كما قال أبو عثمان المازني : « دخلت بقداد فألقيت علي مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبني ويخطئونني على مذاهبهم » وهكذا اتفق لسيبوه رحمة الله . « مغني الليب (مادة إذا) ».

كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبرق إذا هو هي ، أو (فإذا هو إليها) ؟ » فقال سيبويه : « فإذا هو هي) ولا يجوز النصب ». فقال له الكسائي : « لحت ».

ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : (خرجت فإذا عبد الله القائم) أو (القائم) ؟ فقال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب ، فقال الكسائي : « ليس هذا من كلام العرب ، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب ». فدفع سيبويه قوله ، فقال يحيى ابن خالد : « قد اختلفتما وأنتما رئيساً بليديكم ، فمن ذا يحكم بينكم » ؟ فقال له الكسائي : « هذه العرب في بابل قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل مصر ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيحضرن ويسألون » فقال يحيى وجعفر : « قد أنصفت فأمر باحضارهم فدخلوا عليهم : أبو فقعن وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبوه فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله ، فما قبل يحيى على سيبويه فقال : « قد تسمع أيها الرجل ». فاستكان سيبويه (١).

(١) إرشاد الاربيب ١٨٥/١٣ - ١٨٨ ومعنى الليب في بحث إذا . - وأقبل الكسائي على يحيى فقال : أصلح الله الوزير ، انه قد وفدى عليك من بلده مؤمناً فإن رأيت ألا ترده خائباً » فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصیر وجهه نحو فارس فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة . اه .

فيقال إن هؤلاء الاعرب رشوا فوافقوا الكسائي ، وقيل تملقه إرضاء الوزير ، ولم ينطقو بالنصب وإنما قالوا : القول قول الكسائي . وقد ختم ابن الشجري هذا المجلس بأن الكسائي (إنما قصد سؤاله عما علم أنه لا وجه له في العربية ، واتفق هو والفراء على ذلك ، ليخالفه سيبويه فيكون الرجوع إلى السماع ، فيقطع المجلس عن النظر والقياس » امالي ابن الشجري ٢٠٦/١ .

ولم يختلف البصريون حتى اليوم في أن القول ما قال سيبويه وأن الموضع ليس بوضع نصب، وأن هؤلاء الأعراب أعراب الخطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم . ثم جاء ثعلب فاحتال وجهاً للنصلب فقال : « وإنما أدخل الفاء في قوله (فإذا هو إياها) لأن (فإذا) مفاجأة أي (فوجدته ورأيته ، ف (وجدت ورأيت) ينصب شيئاً ويكون معه خبر فلذلك نصبت العرب» .

قلت : وهو وجه غير صحيح ولو صح أن (فإذا = وجدت) لوجب أن يقال (فإذا إياه إياها) ، ولم يدع ذلك حتى الكوفيون .

٣ - بين الكسائي واليزيدى

لقد سلط الله على الكسائي من يثار منه للأصمسي وسيبويه ، فأذاقه على يد يحيى بن المبارك الزيدي ما كان كفاء لعصبيته على البصريين . ويحيى هذا بصري قرأ على أبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ، واتصل بخال المهدى يزيد بن منصور الحميري فأدب أولاده ، واليه نسب فقيل (الزيدي) . ولم يستطع الكسائي أن يغلبه بجاهه فعاش حياته تنزل عليه منه الضربات في المناظرة والهجاء بالأشعار . ثم كان مؤدب المأمون كما كان الكسائي مؤدب الأمين ، واليهك مجلسين من مجالسهما أو لهما قبل مناظرة سيبويه وثانيهما بعدها :

١— قال البربرى

«كنا في بلدمع المهدى في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر فتذاكرروا عنده النحو والعربية ، و كنت متصلة بخاله يزيد ابن منصور والكسائى مع ولد الحسن الحاجب ، فبعث إلى وإلى الكسائى ، فصرت إلى الدار فإذا الكسائى بالباب قد سبقني فقال لي : «أعوذ بالله من شركيا أبا محمد» فقلت : «والله لا تؤتى من قبلي أو أotti من قبلك ». .

فلما دخلنا على المهدى أقبل علي فقال : «كيف نسبوا إلى البحرين فقالوا : (بحري) وإلى الحصين فقالوا (حصي)؟ هلا قالوا حصيني كما قالوا بحراني؟ فقلت : «أيها الأمير ، لو قالوا في النسب إلى البحرين (بحري) لالتبس فلم يدر : آلنسبة إلى (البحرين) وقعت أم إلى البحر؟ فزادوا ألفاً لفرق بينهما كما قالوا في النسب إلى الروح: روحاني؛ ولم يكن لا (حصين) شيء يلتبس به فقالوا : (حصي) على القياس ». .

فسمعت الكسائى يقول لعمرو بن بزيغ: «لو سألهي الأمير عنهم لأجبته بأحسن من هذه العلة ». . فقلت : «أصلح الله الأمير ، إن هذا يزعم أنك لو سأله أجاب بأحسن من جوابي» قال : «فقد سأله». قال : «كرهوا أن يقولوا (حصيني) فيجمعوا بين نونين ، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة فقالوا (بحري) لذلك ». .

قلت : «كيف تنسب إلى رجل من (بني جناتان)؟ إن لم ت

قياسك فقلت: (جني) جمعت بينه وبين المنسوب إلى الجن، وإن
قلت (جناني) رجعت عن قياسك وجمعت بين ثلات نونات» .
ثم تفاوضنا إلى أن قلت له : «كيف تقول : إن من خير القوم
وأفضليهم أو خيرهم بنتة زيد؟ فأطرق مفكراً وأطال الفكرة
فقلت: «أصلاح الله الأمير ، لأن يجib فيخطئ فيتعلم ، أحسن
من هذه الاطالة» . فقال : «إن من خير القوم وأفضليهم أو
خيرهم بنتة زيداً» فقلت: «أخطأ أيها الأمير ، » قال : «وكيف»
قلت: «لرفعه قبل أن يأتي باسم إن ، ونسبة بعد الرفع ، وهذا
لا يجيء أحد» .

فقال شيبة بن الوليد عم ذفافة متعصباً له : «أراد بـ (أو) : بل»
فقلت : «هذا لعمري معنى» ، فلقنه الكسائي فقال : «ما أردت
غيره» . فقلت : «أخطأتما جمیعاً ! لأنه غير جائز أن يقال : إن
من خير القوم وأفضليهم ، بل خيرهم زيداً» فقال المهدى :
«يا كسامي ، ما مر بك مثل اليوم» . قال : «فكيف الصواب
عندك؟» فقلت : «إن من خير القوم وأفضليهم أو خيرـهم
بنتة زيد ، على معنى تكرير ان» . فقال المهدى: «قد اختلفتما وأنتما
علماني ، فمن يفصل بينكم؟» قلت : «فصحاء العرب المطبوعون»
بعث إلى أبي المطوق ، فعملت أبياتاً إلى أن يجيء ، وكان
المهدى عييل إلى أخواله من لليمن (وابن منصور الحميري
حاضر) فقلت :

يا أيها السائلي لأنـبره
عنـ بـ صـنـعـاءـ منـ ذـوـيـ الحـسـبـ
ـ حـمـيرـ سـادـاتـهاـ ،ـ تـقـرـ لهاـ
ـ بـ الـ فـضـلـ طـرـأـ جـحـاجـحـ لـعـربـ
ـ فـانـ مـنـ خـيرـهـمـ وـأـفـضـلـهـمـ أـبـوـ كـرـبـ

فلما جاء أبو المطوق أنسدته الأبيات وسألته عن المسألة فوافقني ١

٢ - في مسيرة الرسول

سؤال الرشيد اليزيدي والكسائي عن قصر (الشراء) ومده فقال الكسائي : « مقصور لغير » وقال اليزيدي : « يقصر ومد » فقال الكسائي : « من أين لك ؟ » فقال اليزيدي : « من المثل السائر : لا يغتر بالحرة عام هدائها ولا بالأمة عام شرائها ». فقال الكسائي : « ما ظننت أن أحداً يجهل مثل هذا » فقال اليزيدي : « ما ظننت أن

(١) أمال الزجاجي ص ٤٠ ثم قال الزجاجي : المسألة مبنية على الفساد للمغالطة فاما جواب الكسائي فغير مرضي عند احد . وجواب اليزيدي غير جائز عندنا لانه أضرر (ان) وأعملها وليس من قوتها ان تضمر فتح .. والصواب عندنا في المسألة ان يقال : « إن من خير القوم وافضلهم أو خيرهم البتة زيد » فتضمر اسم ان فيها وتستأنف ما بعدها . اه - قلت : يريد ان اسمها ضمير شأن مخون .

هذا والقصة في الاغاني (٧٩/١٨) وفيها ثمة اختلاف يسير وبعض نقص واحتلال ، أما الزيادة فيها فنظرية للدلائل على أن العصبية في التحوّل تقتصر على التحاّلة بل تناولت كبار رجال الدولة وأغرتهم بالتحيز ، ولم ينج شيبة بن الوليد هذا وهو أحد قواد المهدي من شرها ، واليك تتمة الخبر برواية الاغاني على لسان أبي محمد نفسه :

« فقال لي المهدي : كيف تنشد أنت ! قلت : « أخيرـهم بـة أبوـ كـرب » على إعادة (إن) كأنه قال : (أو إنـ خـيرـهـمـ بـةـ أبوـ كـربـ) » فقال الكسائي : « هو والله قالـاـ السـاعـةـ . » فبسمـ المـهـدـيـ وـقـالـ : « انـكـ لـتـشـهـدـ لـهـ وـمـاـ تـدـرـيـ » ثم طـلـعـ الـاعـرابـيـ الذـي بـعـثـ إـلـيـهـ فـأـلـقـيـتـ عـلـيـهـ الـمـسـائـلـ فـأـجـابـ فـيـهـ كـلـهـ بـقـوـلـيـ فـاسـتـفـزـيـ السـرـورـ حـتـىـ ضـرـبـوـ بـقـلـنـسـيـ الـأـرـضـ وـقـلـتـ : « أـنـاـ أـبـوـ مـحـمـدـ » فقالـ لـيـ شـيـةـ : « أـنـتـكـيـ باـسـمـ الـأـمـيرـ » فقالـ المـهـدـيـ . « وـاـلـهـ مـاـ أـرـادـ بـذـلـكـ مـكـرـوـهـاـ ،ـ وـلـكـهـ فـعـلـ مـاـ فـعـلـ لـظـفـرـ ،ـ وـقـدـ لـعـمـرـيـ ظـفـرـ » فـقـلـتـ : « إـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ أـنـطـقـ إـلـيـهـ الـأـمـيرـ بـمـاـ اـنـتـ أـهـلـهـ وـأـنـطـقـ غـيرـكـ بـمـاـ هـوـ أـهـلـهـ » فـلـمـاـ خـرـجـنـاـ قـالـ لـيـ شـيـةـ : « أـنـتـخـطـيـ بـيـنـ يـدـيـ الـأـمـيرـ !ـ أـمـاـ لـتـعـلـمـنـ » قـلـتـ : « قـدـ سـمعـتـ مـاـ قـلـتـ وـأـرـجـوـ أـنـ تـجـدـغـبـهـاـ .ـ » ثـمـ لـمـ أـصـبـحـ حـتـىـ كـبـيـتـ رـقـاعـاـ عـدـةـ ،ـ فـلـمـ أـدـعـ دـيـوانـاـ

إـلاـ دـسـتـ إـلـيـهـ رـقـعـةـ فـيـهـ أـبـيـاتـ قـلـتـهـ فـيـهـ ،ـ فـأـصـبـحـ النـاسـ يـتـاـشـوـهـاـ وـهـيـ :

عشـ بـجـدـ وـلـاـ يـضـرـكـ نـوـكـ إـلـمـاـ عـيـشـ مـنـ تـرـىـ بـالـحـدـودـ

عشـ بـجـدـ وـكـنـ هـبـنـقـةـ الـقـيـ سيـ نـوـكـاـ أـوـشـيـةـ بـنـ الـوـلـيدـ

أحداً يفترى بين يدي أمير المؤمنين مثل هذا» (١).

٣- في مصرة الرشيد ايضاً

سأل اليزيدي الكسائي بحضور الرشيد قال : « انظر ، في هذا
الشعر عيب » ؟ وأنشد له :

ما رأينا خرباً ذ قر عنه البيض صقر (٢)

لا يكون العير مهراً ، المهر مهر

فقال الكسائي: «قد أقوى الشاعر» فقال اليزيدي: «انظر فيه»
فقال: «أقوى ، لا بدأن ينصب المهر الثاني على أنه خبر كان» .
فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال: «أنا أبو محمد»
لشعر صواب ، وإنما ابتدأ فقال : المهر مهر ».

فقال له يحيى بن خالد : «أتكتنِي بحضوره أمير المؤمنين وتكشف
رأيك ؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع
سوء فعلك ». .

فقال : «لذة الغلبة أنسنتني من هذا ما أحسن ». (٣).

(١) قوله (مثل هذا) ساقط (من المصباح المثير) وعنده روينا الخبر وهو موجود في التاج نقلًا عن المصباح فلعل الكلمة سقطت من مطبوعة المصباح الاميرية .

(٢) ارشاد الاريب ١٣/١٧٨ . - الغرب ذكر الحبارى ، والمعنى لا يحاول الصقر استخراج صقر من بقية الحبارى . و (يكون) الثانية التي في البيت الثاني توكيد لفظي للالولى واراد الكسائي بـ (أقوى) التي بعد البيتين : لحن .

(٣) المصدر السابق ، هذا وللبيز يدي كلمة في المقابلة بين أبي عمرو بن العلاء والكسائي لا يحسن إغفالها فقد جمع الفضل بن الربيع بيته وبين علي الأحرن الكوفي وأسئلتها : « من كان أعلم بال نحو الكسائي او أبو عمرو بن العلاء ؟ » فكان مما قال البيز يدي وكان تلميذ أبي عمرو : « لم يكن أحد بال نحو أعلم من أبي عمرو . . . لأنه جاور البدو أربعين سنة ولم يقم الكسائي بالبدو أربعين يوماً ! ! » - مجالس العلماء للزجاجي ص ١٧١ طبعة حكومة الكويت .

٤ - بين المازني ونحاة كوفيين :

حضر المازني ونحاة كوفيون مجلس الواثق يوماً فقال الواثق -
- وهذه رواية المازني نفسه - :

«يا مازني هات مسألة» قلت : «ماتقولون في قول الله تبارك
وتعالى : «وما كانت أملك بغيا» (سورة مريم الآية ٢٨) : لم لم
يقل : (بغية) وهي صفة مؤنث ؟ فأجابوا بجوابات غير مرضية ،
فقال لي : «هات». قلت : «لو كان بغي» على تقدير (فعيل) معنى
(فاعلة) للحقتها اهاء مثل كرمة وظريفة ، وإنما تمحض اهاء إذا
كانت في معنى مفعولة في نحو (امرأة قتيل ، وكف خضيب) ؛
و (بغي) هاهنا ليس بفعيل إنما هو (فعول) لا تتحققه اهاء في
وصف التأنيث نحو (امرأة شكور وبئر شطون إذا كانت بعيدة
الرشاء) ، وتقدير (بغي) : (بغوي) قلبت الواو ياء ، ثم أدمغت
الواو في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو (سيد وميت) فاستحسن
الجواب » (١) .

٥ - بين المازني وابن السكيت

قال المازني :

حضرت يوماً مجلس الم وكل وحضر يعقوب بن السكيت ؛
فقال الم وكل : «تكلما في مسألة نحوية» فقلت له : «أسأل»
فقال : «أسأل أنت» فقلت له :

(١) طبقات النحوين واللغويين ص ٩٥ .

— ما وزن (نكتيل) اللفظة الواردة في الآية المذكورة فيها
قصة أخوة يوسف ..

فتسرع وقال : — وزنها (نفعل) .
فقلت له : « اتعد وانظر ». فأفكر ثم قال :
— وزنها (نفعل) .

فقلت : — (نكتيل) أربعة أحرف و (نفعل) خمسة أحرف ،
فكيف تقدر الرباعي بالخماسي ؟ فبهت ولم يحر جواباً .
فقال المتكلم : فما تقول أنت يا مازني ؟

قلت : — وزنها في الأصل (نفعل) لأنها (نكتيل) فلما تحرك
حرف العلة وهو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصارت (نكتال)
ولما دخل الجازم صارت (نكتل) . (وزنها نقتل) .
فقال المتكلم : هذا هو الحق وانخذل ابن السكين ووسم ،
وظهر ذلك عليه .

فلما خرجنا قال ابن السكين في الطريق : « بالغت اليوم في
ذاي » فقلت له : « لم أقصدك بشيء مما جرى ، وإنما مسألة
كانت قريبة من خاطري ، فذكرتها » (١) .

٦ — بين المبر وتعلب

« حكي أن بعض الأكابر من بنى طاهر سأله العباس ثعلباً
أن يكتب له مصحفاً على مذهب أهل التحقيق ، فكتب (والضحي)
بالياء ، ومذهب الكوفيين أنه إذا كان كلمة من هذا النحو

(١) أباه الرواة ٢٥٠/١ وطبقات النحوين والقويين ص ٩٤ .

أو لها ضمة أو كسرة كتبت بالياء وإن كانت من ذوات الواو ، والبصريون يكتبون بالألف . فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال : « ينبغي أن يكتب (والضحا) بالألف لأنه من ذوات الواو ، فجمع ابن طاهر بينهما :

قال المبرد لشعلب : « لم كتبت (والضحا) بالياء » ؟ فقال : « لضمته أوله » . فقال له : « ولم إذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء » ؟

قال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما أوله الواو يكون آخره ياء ، فتوهموا أن أوله الواو » . قال المبرد : « أفلًا يزول هذ للتورهم إلى يوم القيمة » ؟ ! ! ! (١).

وفي كتاب « مجالس العلماء » للزجاجي عدد من المجالس بين المبرد وشعلب تظهر الفارق الكبير بين سداد المبرد وملكته وعلمه ، وتبخبط شعلب في نقله وقياسه ، ويفيد الاطلاع على هذا

(١) ارشاد الاريب ١١٨/١٩

هذا وقد تمثلت في الخصومة بينهما الخصومة بين البصريين والковفيين عامة واشترك فيها الشعر على هوئ قائليه : فمحب لوفاق يقول :

أيا طالب العلم لا تجهل
وعذ بالمبرد أو ثعلب
وبصري يقول :

رأيت محمد بن يزيد يسمو
وكان الشعر قد أودى فأحيا
أبو العباس داشر كل شعر
وقالوا : ثعلب رجل عليم
وأين التجم من شمس وبدر
وقالوا : ثعلب يفتي ويملي
وأين الثعلبان من المهزير . الخ
والظاهر أن حيوية هذه الخصومة جلبت إليها الوقود الكافي من المتخصصين حتى ذهبت
مثلاً في الأدب فقال أحد المحبين يحن ويتشوق :
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأننا ثعلب والمبرد
انظر بغية الوعاة ص ١١٦ .

الكتاب جملة ، وبين ص ١١٩ و ١٢٦ شيء من هذه المجالس
بينهما (طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٢) .

٧ - بين ثعلب والزماج

قال الرجاج :

دخلت على أبي العباس ثعلب في أيام المبرد وقد أمل شيئاً من
(المقتضب) فسلمت عليه وعنده أبو موسى الحامض وكان
يحسدني شديداً ويجاهرني بالعداوة وكانت ألين له وأحتمله
لوضع الشيخوخة .

فقال لي ثعلب : « قد حمل إلى بعض ما أملأه هذا الخلدي (يعني
المبرد) فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة ». فقلت له : « إنه لا يشك في
حسن عبارته اثنان ، ولكن سوء رأيك فيه يعييه عندك ». فقال:
« ما رأيته إلا لكن متغلقاً » .

قال أبو موسى : « والله إن صاحبكم (يعني سيبويه) لكن »
فأحفظني ذلك ثم قال :

« بلغني عن الفراء أنه قال : « دخلت البصرة فلقيت يونس
وأصحابه فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراءة وحسن
الفطنة ، فأتيته فإذا هو أعمج لا يفصح ، سمعته يقول لجاريه :
« هات ذيتك الماء من ذاك الجرة » فخرجت من عنده ولم أعد عليه ». فقلت له : « هذا لا يصح عن الفراء ، وأنت غير مأمون في هذه
الحكاية ، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً ، وكيف
تقول هذا لمن يقول في أول كتابه : (هذا باب علم ما الكلم من

العربية)؟ وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء فضلاً عن النطق به» فقال ثعلب: «قد وجدت في كتابه نحواً من هذا: يقول: (حاشا) حرف يخفي ما بعده كما تخفى (حتى) وفيها معنى الاستثناء».

فقلت: «هذا كذلك في كتابه، وهو صحيح؛ ذهب في التذكير إلى الحرف، وفي التأنيث إلى الكلمة».

قال: «والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد».

قلت: «كلُّ جيد، قال الله تعالى: «ومن يقنت منكِن لله ورسوله وي عمل صالحًا...» وقرئ: «وتعمل صالحًا»، وقال عز وجل «ومنهم من يستمعون إليك» (٢) ذهب إلى المعنى ثم قال: «ومنهم من ينظر إليك» ذهب إلى اللفظ، وليس لقائل أن يقول: لو حمل الكلام على وجه واحد في الآيتين كان أجود، لأنَّ كلامًا جيد.

فأما نحن (يريد للبصريين) فلا نذكر حدود الفراء، لأن صوابه فيه أكثر من أن يعد، ولكن هذا أنت يا ثعلب عملت كتاب (الفصيح) للمبتدئ المتعلم وهو عشرون ورقة أخطأت في عشرة مواضع منه... الخ».

وفصل للزجاج هذه المواضيع مستشهدًا بكلام العرب فانظرها في مظتها.

(١) سورة الأعراب ٣٣ الآية ٢١.

(٢) سورة يونس ١٠ الآية ٤٢.

(٣) الآية التالية ٤٣/١٠.

ثم قال الزجاج : « فما قرئ عليه كتاب الفصيح بعد ذلك علمي ، ثم بلغني أنه سئم ذلك ، فأنكر كتاب الفصيح أن يكون له » (١) .

وهم يصفون ثعلباً بغزارة الحفظ ، لكنه « لم يكن مع ذلك موصوفاً بالبلاغة ، فإذا كتب كتاباً إلى بعض أصحاب للسلطان ما خرج عن طبع العامة » (٢) .

* * *

في أكثر هذه الأخبار مجال لمن شك فيها أو توقف ، فما فاز فيه الكسائي على خصميه عرفناه من رواية أنصاره الكوفيين ؛ فراوي خبر الأصمعي والكسائي ثعلب وهو من أئمتهم ، وراوي خبر سيبويه والكسائي هو الفراء تلميذ الكسائي ، وراوي خبر اليزيدي هو اليزيدي نفسه . . . ولم نسمع رواية الطرف الآخر من شاهد للواقع . ومع هذا نستطيع اعتبارها واقعة كما رووها لنا ونضي في بحثنا جاعلين عدم تقضي البصريين لهذه الرواية - فيما علمنا - إقراراً منهم بضمونها . ونلاحظ بعد ذلك الأمرين الآتيين :

١ - لا يحتاج القارئ إلى كثير روية حتى يطمئن إلى أن الحق في كل هذه المناظرات كان بجانب البصريين : الأصمعي وسبويه ، واليزيدي ، والبرد ؛ وأن حجج الكوفيين في هذه المسائل واهية .

(١) إرشاد الأريب ١٣٧/١ - ١٤٣ - ١٤١/٣ وانظر إناء الرواة .

(٢) طبقات التحريرين والتفويين للبيهقي ص ١٥٧ .

٢ - لم تكن أكثر هذه المجالس عادلة ، فميل السلطان إلى أحد الخصمين وتقريبه له ومكانته عنده ، كل ذلك قوى نفسه فاستطاع على خصميه بذاته ولسانه وجاهه في القصر وعند الشهود ، وتحدثت هذه المجالس بغلبته ، إلى أن مضت الأيام وانقضت تلك الاعتبارات وحكم التاريخ فرد الحق إلى أهله.

* * *

وبعد ، فقد بلغ هذا الخلاف أجله ، ودرج العلماء والمؤرخون على أن هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفياً ، مما معالم كل من المذهبين وما أهم الميزات لهذا وذاك ؟

أبادر قبل بسط هذه المعالم إلى تسجيل أمرين لابد منهما إذا أردنا الدقة في البحث والاحتياط في الأحكام :

١ - نحن اليوم نملك من كتب البصريين عدداً صالحًا يساعدنا في إرسال الأحكام بشيء من الاطمئنان ، فقد راجت في الأقطار منذ تأليفها حتى اليوم ، وشرح منها شيء الكثير ، وتداوته الطلبة على مر السنين . ثم كان الذين ألفوا في طبقات النحوين وأخبارهم من طبعـت كتبـهم ينصرـ أكثرـهم المذهبـ البصريـ ، وـكانـ للـنـحوـ فيـ الشـامـ وـمـصـرـ وـالـمـغـرـبـ وـالـأـنـدـلـسـ .. بـصـريـ الطـابـعـ فيـ أـكـثـرـ مـسـائـلـهـ أـغـلـبـ الـأـزـمـانـ ، وـهـذـاـ كـلـهـ قدـ خـدـمـ كـتـبـ الـبـصـرـيـنـ وـنـحـوـهـمـ خـدـمـةـ لمـ يـحـظـ بـعـضـهـاـ المـذـهـبـ الـآـخـرـ .

أما للكوفيـونـ فـلـمـ يـطبعـ منـ كـتـبـهـ النـحـوـيـةـ حـتـىـ الـآنـ شـيـءـ فـيـماـ

أعلم (١) وإنما اطلعنا على أقوالهم في كتب المؤخرین منتشرة على المسائل ، أي إن آراءهم وردت في كتب خصوصهم - مع شيء من التجوز - (٢) للرد عليها ، فان نحن اعتمدنا على ذلك في إصدار الأحكام ، لم نكن إلى العدل في شيء . والحق يقضي ألا نرسل حکمًا بين فريقين إلا بعد الاستماع إلى حجج كلٍ من فيه . وهذا مع الأسف ليس ميسوراً الآن .

٢ - هذه الميزات والمعالم الآتية بعد ، ليست جامعة مانعة ؟
فليست هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة ، أو قال بها الآخرون جميعاً وعارضها الأولون جميعاً . بل كثيراً مانجد العالم الواحد من أهل الكوفة مثلاً يذهب إلى أحكام يوافق فيها مذهب خصومه ويختلف أهل مصره . وطالما تجد هذه الظاهرة في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف

(١) بل إنني سررت ترجم النحاة في (بنية الوعاء للسيوطى) فلا ذكر أنه من بي كتاب في النحو لكوني بعد أئمته الأولين غير ما جاء في ترجمة أي جعفر التنوخي المتوفى سنة ٣١٨ هـ من أن له مؤلفاً في النحو على مذهب الكوفيين ، إلا أن يكون من شيء وغفلت عنه .

(٢) وقفني قول الزجاجي وهو من خلط المذهبين - في كتاب الإيضاح (ص ٨٠) : « أكثر ما ذكر من احتجاجات الكوفيين إنما أعتبر عنه بلفاظ البصريين » ؛ حتى إذا مضيت في مطالعة الكتاب وجدت علة ذلك في ص (١٣١) في قوله : « ... إذ لو تكلفتنا حكاية لفاظ الكوفيين بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة ، بل لعل أكثر لفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كلامهم ، وكثير منها قد هندها من نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان وابن شقيق وابن الخطاط وابن الأنباري ... » أه . قلت : وهذا فارق هام بين المدرستين حين لا يتضح مراد الواحدة إلا باستعارة عبارات الأخرى .

لابن الأنصاري) (١) وفي كتب النحو الأخرى (٢) . وما أكثر ما نقرأ فيها : « قال البصريون إلا فلاناً وفلاناً كذلك ، وذهب الكوفيون إلا فلاناً إلى كذلك ».

ولم يطرد للصواب في أحد المذهبين اطراداً ، بل تجده تارة مع هؤلاء وتارة مع أولئك ، وحياناً وسطاً بينهما .

(٣) الفروق بين المذهبين البصري والكوفي

بعد الاحتياط المتقدم نحصر الكلام على المذهبين في ناحيتين اثنتين إليهما مرد الأمر كله ، وهما السمع والقياس .

أمر السمع

تقع البصرة على سيف الbadia ، وأكثر عربها من قيس وتميم ، وقد عرفت شأنهما في الاحتجاج ، وتحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها مخالطة الأعاجم ، فكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المربد) ، وأنت تعلم أن المربد كانت عكاذاً الإسلام ، ففيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع (٣) ،

(١) انظر مثلاً المسألة الثالثة (١٩/١) في خلافهم حول الالف والواو والياء في الثنوية والجمع : هل هي اعراب كالفتحة والضمة والكسرة او هي حروف اعراب ، فتجد الكوفيين قالوا بالاول ، والبصريين بالثاني ، ووافق قطرب (البصري) مذهب الكوفيين . وانشق المازني والمبرد ز الاخش عن البصريين برأي ثالث .

(٢) انظر مثلاً مغني اللبيب : مادة (كلا) فقد اختلف في معناها الكسائي والفراء وكلاهما كوفي : قال الاول هي بمعنى حقاً وقال الثاني : هي بمعنى (ألا) الاستفتاحية .

(٣) انظر بسط ذلك في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) .

وذلك له أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ثم كانت هناك رحلات متبادلة ، فعلماء البصرة دأمو الترحال إلى الbadia والجزيرة يتلقون عن أعرابها ، والأعراب دأمو الورود إلى البصرة لشئون معايشهم ، فقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي وأبو عبيدة ويونس وأبو زيد والخليل وغيرهم ، ثم كانوا يتحرون في الأخذ : أما العربي فيتحرون فيه سلامته لغته وسليقته (١) وأما الرواقي فالصدق والضبط ، ثم كانوا لا يعتدون بالشاهد إذا لم يعرف قائله أو لم يروه عربي يوثق بلغته (٢) ومن هنا عجبت بلدتهم بفصحاء الأعراب المعروفين في كتب الأدب الذين كانوا من مفاحر البصرة التي يعتدتها البصريون .

أما الكوفة فهي أدخل في العراق وأقرب إلى الاختلاط بالأعجم ، ولغة أعرابها ليست لها سلامة لغة أعراب البصرة ، فأكثرهم يمن وبها قليل من قبائل أخرى ، واليمن - كما رأيت في الكلام على الاحتجاج - لا يحتاج بلغتها لتغييرها بالاختلاط بالفرس والأحباش ، ثم بين الكوفة وجزيرة العرب صحراء السماوة الشاسعة فلذا لم تكن رحلات علمائها إلى الجزيرة كرحلات علماء البصرة ، والكسائي الذي ارتحل لم يرتحل إلا لما تلمذ على الخليل وسائله فأرشده إلى الرحلة وقد مر بك أن أبا

(١) استضعف ابو عمرو بن العلاء فصاحة أبي خيرة الاعرابي لما سأله : كيف تقول : استأصل الله عرقاهم ! «فتح ابو خيرة النساء» ، فقال له ابو عمرو : «هيهات ابا خيرة ، لأن جلتك .» - *الخصائص* ١٣/٢ .

(٢) في كتاب سيبويه (١٠٥٠) شاهداً خمسون منها لم يعرف قائلوها ، فاعتذرنا بأن سيبويه وثق بروايتها . ومع هذا كان بين هذه الخمسين ما وضع وضعاً . وهو نظر يسير لا يعتد به

عمرٌ بن العلاء جاور البدو أربعين سنة ولم يقم الكسائي بالبدو غير أربعين يوماً (١) ! بل نقلوا أن الكسائي « حمل إلى الأخفش البصري خمسين ديناً وقرأ عليه كتاب سيبويه سرّاً ». (٢)

نعم كان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكي مربد البصرة وهي (سوق كنasse)، لكن لم يكن لها ذلك الشأن ، وهي إلى أن تكون داعية إفساد اللغة أقرب منها إلى أن تكون عاملاً في صيانتها ، لأن الأعراب الذين يؤمونها غير سليمي السلائق. كل هذه العوامل صرفت الكوفيين إلى روایة الشعر ، فذلك هو الميسور لهم ، وزعموا أن سبب علمهم بالشعر وبقبتهم فيه أهل البصرة : أن المختار بن أبي عبيد لما خرج بالكوفة قيل له : « إن تحت القصر الأبيض الذي كان للنعمان كنزًا » ، فاحתרف فوجد الطنج التي كان النعمان أمر أن ينسج فيها أشعار العرب ، فأخرجها . قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر ، هذه روایة حماد الرواية الكوفي (٣) .

هذا حال من ينقلون عنه من حيث السليقة وسلامة اللغة ، وأما الجهة الثانية وهي صدق الرواوى وضبطه فلم يعنوا بها ، ولذا كثُر الموضوع المصنوع في أكثر روایاتهم ، قال أبو الطيب اللغوي : « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن

(١) مجلس العلماء للزجاجي ص ١٧١ طبعة حكومة الكويت .

(٢) انظر مثلاً مراتب النحوين ص ٧٤

(٣) انظر المصائص ٣٨٧/١ . الطنج : الكراريس . والنبر كله أسطورة من الصعب تصدقها ، ولعله وضع كما توضع أشباحه من الأخبار النافخة في العصبية للبلدان .

أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم «(١)» وأبعد من ذلك في الدلالة قصة خلف الأحمر راويتهاهم الكبير فقد قال :

«أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح . ثم مرضت فقلت لهم : «ويلكم ، أنا تائب إلى الله تعالى ؛ هذا الشعر لي ». فلم يقبلوا مني وبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب . (٢)»

أما روايي لهم الأكبر «حماد» فهو الشمس شهرة في كذبه ووضعه ، و «قد سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يصلح أبداً . . . فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل من الأقدمين ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك » (٣) .

ولا تنس استشهاده باللحن أيضاً حتى امتنع الكميّت الشاعر عن إملاء شعره عليه وقد طلب ذلك منه وقال له : «أنت لحان ولا أكتبك شعري » (٤) .

وقد عجب يونس «كيف يأخذ الناس عن حماد وهو يلحّن

(١) عن مراتب النحوين ص ٧٤ .

(٢) وفيات الاعيان ٤٩٣/١ .

(٣) كلمة المفضل الضبي - ارشاد الاربيب ٢٦٥/١٠ . وعلى أن المفضل الضبي هذا «أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة» بتعديل ابن سلام (طبقات الشعراء ص ٢١) فقد وقع هو نفسه فيما خاف منه ، فذكر ابن سلام في كلامه على عدي بن زيد أنه «حمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فأكثر» ص ١١٧ .

(٤) الموسوعة المرتبة في المعرفة ١٩٥ .

ويكسر للشعر ويكتتب ويصحف» (١) ولا تنس أنه ديلمي من السبي .

وحتى كانوا إذا بالغوا في الثناء على علم كوفي شبهوا روايته برواية أهل البصرة فقالوا في ترجمة ابن الأعرابي تلميذ المفضل الضبي : « ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه رواية برواية البصريين منه » (٢) .

كان من الطبيعي إذاً أن يطرح الثقات روایات أهل الكوفة وقد ملأها حماد وخلف وغيرهما بالمصنوع ، وصار ذلك مما عيّز مدرسة الكوفة من مدرسة البصرة ، وعرف ذلك الخاص والعام ، حتى أتى من ألف في طبقات النحوين فسجل الظاهرة الآتية :

« لا يعلم أحد من علماء البصريين بال نحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة إلا أبو زيد الأنباري البصري ، فقد روى عن المفضل الضبي الكوفي » (٢)

وحتى كانوا إذا بالغوا في الثناء على علم كوفي شبهوا روايته برواية أهل البصرة فقالوا في ترجمة ابن الأعرابي تلميذ المفضل الضبي : « ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه رواية برواية البصريين منه » (٣) .

أما أهل الكوفة فيرون عن أهل البصرة إذ كانوا أساتذتهم ،

(١) مراتب النحوين ص ٧٣ .

(٢) نزهة الآباء لابن الأنباري ص ١٧٥ .

(٣) بغية الوعاة ص ٤٢ .

حتى الكسائي الذي قرأ على الخليل ويونس وعيسى بن عمر ، ورأى تحريرهم فيما ينقلون وفيمن يشافهون ؛ زايل التحري حين انتقل إلى بغداد وكان أمره كما قال أبو زيد الانصاري : « قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم صار إلى بغداد فلقي أعراب الحطمية فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللاحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله ». (١) .

كل ما تقدم مشهور متعارف عند أهل العلم قديماً ، حتى إن ابن سلام لما نقل قوله المفضل الضبي : « للأسود بن يعفر ثلاثون ومئة قصيدة » عقب عليه بقوله : « ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه ، وقد علمت أن أهل الكوفة يررون له أكثر مما نروي ويتجذرون في ذلك بأكثر مما تجوزنا ». (٢) .

ولا تظنن هذا الطابع طبع مدرسة الكوفة في علوم العربية فحسب ، بل هو سماتهم في كل ما يعتمد السمع ، وإليك حكم الخطيب البغدادي على المدرسة الكوفية ومدرسة البصرة في الحديث قال : « ولأهل البصرة من السنن الثابتة بالأسانيد الواضحة ما ليس لغيرهم مع إكثارهم . والковيون مثلهم في الكثرة غير أن روایاتهم كثيرة الدغل قليلة السلامة من العلل ». (٣) .

(١) ارشاد الاربيب ١٨٢/١٣ . الخطمية قرية على فرسخ من شرق بغداد . وذكر الاصمعي « ان الكسائي يأخذ اللغة عن اعراب الحطمية ينزلون بقطربيل (قرية بين بغداد وعكرا) وغيرها من قرى سواد بغداد ، فلما ناظر سيبويه استشهد بكلامهم واحتاج بهم وبلفتهم على سيبويه » ١٨١/١٣ .

(٢) طبقات الشعراء ص ١٢٣ .

(٣) نقله المرحوم جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد التحديث ص ٥٨ .

هذا فرق مابين المدرستين في أمر السماع وصحته والتحرى فيه .

أمر القياس

رسم البصريون خطتهم في النحو بعد أن جعلوا نصب أعينهم الهدف الذي اليه يرمون ، وهو عصمة اللسان من الخطأ ، ويسير للعربية على من يتعلّمها من الأعاجم . ولذا تحرروا ما نقلوا عن العرب ثم استقرّوا أحواله فوضعوا قواعدهم على الأعم الأغلب من هذه الأحوال ، فان تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم سلّكوا بها – بعد التحرى من صحة نقلها عن العرب المحتج بكلامهم – إحدى طريقتين : إما أن يتّأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة ، وإما أن يهملوها أمرها لقلتها فيحفظوها ولا يقيسوا عليها ، جاعليها من الصنف الذي سموه مطرداً في السماع شاداً في القياس ، وذلك مثل (استحوذ واستصوب) والقياس فيها الاعلال مثل (استقال ، استجاد ، استطال .. الخ) فقالوا : تحفظ الكلمات النادرة التي وردت عن العرب في هذا الباب ولا يقاس عليها ، بل منهم من ذهب إلى أن اتخاذ القياس فيها (استحاذ ، استصاب) غير خطأ .

وهم الذين أمعنوا في أحوال الكلام العربي ، واستنبطوا عليه ، وحكموا فيها المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم في القياس والنحو الذي بني عليها متناسقة في الحملة ، ولا بد في كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض التوء من الهيكل المشذب . ولم يكن إلى الصواب من عاب عليهم من المحدثين

أنهم بتعتميم هذه القواعد قد أهدروا شيئاً من اللغة ، فهم حين يختارون بين اللغتين أشيعهما وأقربهما إلى القياس ، قد قاموا بخير ما يمكن أن يقوم به من يريد حفظ اللغة ، ومع أن الكوفيين جمعوا ما هب ودب ولم يفرطوا شيئاً مما وصل إليهم ، لم يدعوا ولم يدع لهم أحد أنهم لموا اللغة من أطرافها وأحصوها ، وأنا نجد عندهم كل لغات العرب بلهجات قبائلها ؛ بل نحن أخرى أن نجد عند البصريين المنظمين المنسيين مالا نجده عند غيرهم ، فالنظام يحفظ في نسق مالا يستطيع غيره أن يحفظه . أما الكوفيون فلم يكن لهم أصول يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين ولم يحسنوه ، ثم جعلوا من عدم المنهج في سماعهم منهجاً خاصاً لهم ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عنهم فسلت لغته من الأعراب وأهل الحضر ؛ فلما اقتضتهم المنافسة أن يكون لهم قياس كما لأولئك بنوه على ما عندهم مما يتزره عن روايته البصري ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه ، فانتشرت عليهم قواعدتهم ولم يعد لها ما مسكتها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو فلم يعد - في أيديهم - أداة تيسير لتعلم العربية ، بعد أن أصبحت له قواعد بعدد ما جمعوا من شواهد ، وهذا شيخهم وكبيرهم الكسائي : « كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة ، والضرورات ، فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو » (١) وحتى ضاق به وبقياسه

(١) ارشاد الاريب ١٨٣/١٣ . ويقول ابن درستويه . « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه فافسد النحو بذلك . » - بغية الوعاء

وبسماعه اليزيدي فقال :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه على لغى أشياخ قطر بل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعه يردون بالنحو إلى أسفل (١)
وغلب هذا الانحراف على الكوفيين حتى قال الأندلسى شارح
المفصل : « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف
للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه ». (٢) .

أما قياسهم نفسه ومقدار جودته فقد مر بذلك في المناظرات نمط
منه ، وعرفت و هي حين يعللون بالتوهم مرة في رسم
(والضحي) ، وبتسليط فعل مقدر على أحد المتعاطفين دون الثاني
في قضية (فإذا هو إياها) .

* * *

اتجه بعض الباحثين المحدثين إلى عد المذهب الكوفي مذهب
سماع على حين عدوا المذهب البصري مذهب قياس ، فذهب
الأستاذ أحمد أمين إلى أنهم « يخترون كل ما جاء عن العرب
ويجيزون للناس أن يستعملوا استعمالهم » (٣) ، وبالغ المرحوم
طه الرواوى فقال : « أما مذهب الكوفيين فلو أواه بيد السماع ،
لا يخفر له ذمة ولا ينقض له عهداً ، ويجهون على الكوفي نقض
أصل من أصوله أو نسف قاعدة من قواعده ولا يجهون عليه

(١) أخبار النحوين البصريين ص ٤٤ وبنية الوعاة ص ٣٣٦ وارشاد الاربيب ٣١/٢٠ .

(٢) الاقتراح ١٠٠ .

(٣) ضحي الاسلام ٢٩٥/٢ .

عليه اطراح المسموع على الأكثـر . (١).

وأود هنا – بعد ما مر بك – أن أحـرر هذا الأمر فأفرق بين القياس ذـي الأصول المقررة والقياس المشوش الذي لا ضـبـط له . فالصـحيح أنـ الفـريـقـين كـانـا يـقيـسـانـ ، وـرـعـما كـانـ الـكـوـفـيـونـ أـكـثـرـ قـيـاسـاـ إـذـا رـاعـيـناـ (ـالـكـمـ)ـ فـهـمـ يـقـيـسـونـ عـلـىـ الـقـلـيلـ وـالـكـثـيرـ وـالـنـادـرـ وـالـشـاذـ ، وـلـمـ نـعـلـمـ لـهـ مـنـاهـجـ مـحـرـرـةـ فيـ الـقـيـاسـ .ـ أمـاـ الـبـصـرـيـونـ فـهـمـ أـقـيـسـ إـذـا رـاعـيـناـ (ـالـكـيـفـ)ـ وـالـحـقـ مـرـاعـاتـهـ –ـ فـهـمـ لـاـ يـقـيـسـونـ إـلـاـ عـلـىـ الـأـعـمـ الـأـعـلـبـ ،ـ وـلـهـ مـفـعـلـهـ فيـ الـقـيـاسـ أـصـوـلـ عـامـةـ عـامـةـ يـرـاعـونـهاـ .ـ وـلـزـمـ حـكـمـ لـعـلـمـهـ بـالـبـقـاءـ إـذـ كـانـ الـأـنـسـبـ وـالـأـضـبـطـ .ـ فـكـانـ نـحـوـ النـاسـ حـتـىـ هـذـاـ الـيـوـمـ بـصـرـيـاـًـ فيـ أـغـلـبـهـ .

تصـرـفتـ الـحـيـاةـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ بـمـاـ لـاـ يـشـعـرـ بـهـ الـبـصـرـيـونـ وـلـاـ الـكـوـفـيـونـ ،ـ إـذـ أـنـ هـاـ اـخـتـيـارـهـ الـخـاصـ الـمـلـائـمـ :ـ تـقـبـلـ مـاـ يـرـوـقـهـاـ وـتـحـيـيـهـ غـيـرـ آـبـهـ لـاـ يـقـولـ هـؤـلـاءـ وـلـاـ مـاـ يـقـولـ أـوـلـئـكـ ،ـ وـإـنـاـ السـلـيـقةـ الـلـغـوـيـةـ الـخـفـيـةـ فـيـ نـفـوسـ الـمـتـكـلـمـينـ هـيـ الـتـيـ اـحـتـفـظـتـ بـمـاـ كـانـ أـقـرـبـ لـرـوـحـ الـعـرـبـيـةـ الـأـوـلـيـ :ـ فـمـاـ بـلـ لـمـ يـوـلدـ مـاـ جـانـفـ هـذـهـ السـلـيـقةـ ،ـ فـمـاـ أـحـدـ قـالـ وـلـاـ يـقـولـ الـيـوـمـ (ـالـرـجـالـ قـامـ)ـ وـإـنـ قـالـ الـمـذـهـبـ الـكـوـفـيـ بـتـقـدـيمـ الـفـاعـلـ عـلـىـ الـفـعـلـ .

أـمـاـ السـمـاعـ فـهـلـ كـانـ الـكـوـفـيـونـ (ـيـحـترـمـونـهـ)ـ حـقـاـ كـماـ قـالـ الـأـسـتـاذـ أـحـمـدـ أـمـيـنـ ؟ـ ،ـ (ـوـهـلـ كـانـ لـوـأـهـ بـيـدـهـمـ لـاـ يـخـفـرـونـ لـهـ ذـمـةـ)ـ كـماـ قـالـ الـمـرـحـومـ الـأـسـتـاذـ طـهـ الرـاوـيـ ؟ـ لـعـلـكـ بـعـدـ مـاـ سـبـقـ لـكـ مـوـقـنـ مـعـيـ أـنـ السـمـاعـيـنـ هـمـ الـبـصـرـيـونـ لـاـ الـكـوـفـيـونـ ؟ـ فـمـنـ

(١) نـظـرـةـ فـيـ النـحـوـ :ـ مـجـلـةـ الـمـجـعـ الـعـلـمـيـ الـعـرـبـيـ ٣١٩/١٤ .

احترام السماع صيانته وحفظه من كل موضوع ، ومن احترامه تحرى حال المسموع منه ، فلا يدنس فيه كلام الذين فسدت لغتهم من اعراب الحطمية وأشياخ قطربل ، ومن احترامه ألا نساوي بين القليل للنادر والأكثر الشائع فنغمط حق هذا الأخير . وإن حشرنا فيه الضعيف والشاذ والخطأ مما يقع فيه أعراب السواد ، والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان ؛ خفر لذمته ونقض لعهده (١) .

الحق أن البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه) ، على حين زيفه الكوفيون وببللوه ، والأمر في القياس على هذه الوتيرة ، نظمه وحرر قواعده وأحسن تطبيقه البصريون ، على حين هو في يد الكوفيين مشوش غير واضح المعالم ولا منسجم في أجزائه ، ولا مطرد . بل تجده فيه ظاهرة غريبة جداً ، وهي إطلاقهم - وهم المتقيدون بالسماع - الاستفراق فيما لم يسمع عن العرب ، فقد ذهبوا إلى قياس (مفعول وفعال على نحو مني وثلاث من خمسة إلى تسعه على حين لم يسمع عن العرب ذلك إلا من واحد إلى أربعة ، والبصريون أنفسهم - وهم القياسيون - منعوه (إلا المبرد منهم) لعدم السماع ، ولأن يكون ذلك من البصريين أخرى إذ هو بمذهبهم أشبه وعن مذهب الكوفيين أبعد . وهذا يؤكّد لك ما ذهبت إليه من أنه مذهب غير منسجم الأجزاء .
أميل إذاً إلى أن المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح ولا

(١) كان يونس بن حبيب يقول : إن لم يكن بزرج النحوي (الكوفي) أروى الناس فهو أكذب الناس . « كان كذاباً ، كثيراً ما يحدث بالشيء عن رجل ثم عن غيره . - انظر ترجمته في الفهرست وفي إنباء الرواة .

مذهب قياس منظم . لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين مذهب السماع ومذهب القياس ، وهما حقاً وجداً ، ولكن في البصرة لا في الكوفة . أما القياس فليست بصريته موضع خلاف ، وأما السماع الصحيح فاني أوثر أن أنقل فيه كلام الأستاذ أحمد أمين نفسه في أن هذه المدرسة مدرسة بصرية ، قال :

« كانت هاتان الترزنغان في البصرة في أيامها الأولى ، فهم يقولون إن ابن أبي اسحاق الحضرمي وتلميذه عيسى بن عمر كانوا أشد ميلاً للقياس وكانا لا يأبهان بالشواذ ولا يتحرجان من تخطئة العرب ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما : يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت الترزة الأولى على من أتى بعد من البصريين ، وغلبت الترزة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين ولا سيما الكسائي الكوفي » .

وهذا حق مع استدراك واحد ، هو أن آبا عمرو ويونس يعظمان قول العرب بعد التحري والتثبت من أنه كلام العرب المحتاج بهم ، أما الكوفيون فلا يتحررون ، ولو قال الأستاذ (فغلبت الترزة الثانية مشوهة الخ ..) لطبق المفصل ، وجميل ما حكم به بعد ذلك بين المذهبين :

« ونرى في هاتين الترزنغانين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً ، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراضاً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً (كذا) ، فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة

يسودها للنظام والمنطق ، ويحيطوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق والكتفيفون ي يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ ، من غير أن يهملوا شيئاً حتى الموضوع » (١) .

وبهذا لا يكون من الدقة - فيرأيي - إطلاق التزعة السمعية على المذهب الكوفي والتزعة القياسية على المذهب البصري . والدقة التي يؤيدتها التاريخ والأمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصري يقابل مذهب كوفي بل نزعة سمعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالاً ومقداراً بين البلدين ، بل بين نحاة كل بلد على حدة . على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد ، بعد أن علمنا أن التزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة

* * *

وبعد فهذه أحکام تقريرية لا مطردة ، إذ أن في المذهب الكوفي مسائل جيدات تختار على مثيلاتها في المذهب البصري ، كإعمالهم مثلاً اسم المصدر عمل المصدر ، فحكمهم في ذلك صحيح واضح تؤيده روح القواعد والمنطق ، وشاهداً لهم عليه صحيحان قويان ١

(١) ضحي الإسلام ٢٩٦ :

هذا وللقاضي الحرجاني في كتابه (الواسطة) الذي ألفه للدفاع عن المتنبي الكوفي والحكم بيته وبين خصومه ، حكم يسرني بإثباته له لما فيه من توضيح الأمر هنا على رغم سوء مساق الدفاع عن الكوفيين قال :

ولأهل الكوفة رخص لا تقاد توجد لغيرهم من النحوين . . . غير أنهم لا يبلغون بها مرتبة «الأهمال» للقواعد العامة . انظر الواسطة ص ٤٦٦ .

(١) قولقطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي :

أَكَفَرَ بَعْدَ رَدِ الْمُوْتِ عَنِي وَيَعْطَىكُلُّ الْمُتَّعَا
والمحدث الشريف : « من قبلة الرجل أمر أنه الموضوع . »

ففزع البصريون في رد القاعدة إلى أن الحديث مروي بالمعنى ، وإلى أن البيت فيه ضرورة . لكن الزمان حكم للكوفيين فصحت قاعدتهم وسار عليها الناس وقبلها النهاة حتى يومنا هذا . ونحو من هذا : القاعدة التي وضعها البصريون في وجوب إعادة الجار قبل المعطوف على المجرور ولم يتلزم العرب بذلك .

وما اتجهوا إليه في إعراب (نعم وبئس) (١) أيسر وأقرب إلى للفطرة اللغوية من مذهب إخوانهم البصريين ، وكتذاب بعضهم في قضية (أشياء) وانها جمع لشيء منع من الصرف لشبه ألفها بـألف التأنيث (٢) ، ولهم أشباه هذه المسائل .

وبذلك تدرك صواب الظاهره التي قدمت بها هذا الكلام من أن الحق يصيغه هؤلاء تارة وهؤلاء تارة .

ونختتم هذه الفقرة بمثل صغير من احلاف بين المدرستين ننتزعه من كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري) نموذجاً لقضايا جاوزت المئة في هذا الكتاب ، يبسط في كل منها رأي الكوفيين وحججهم ثم رأي البصريين وحججهم مع ردودهم على حجج الكوفيين غالباً .

٩٢ — مألة سوف

ذهب الكوفيون إلى أن السين التي تدخل على الفعل المستقبل نحو (سأفعل) أصلها (سوف) ، وذهب البصريون إلى أنها أصل بنفسها .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن سوف كثـر

(١) انظرها في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٢ فقد ركب البصريون في هذه المسألة متن عميم واضطروا إلى الاستفادة بأوهي العلل حتى بالحراف اللسان وكان من حججهم قول بعض العرب (ما أيطبه) بدل (ما أطيه) !

استعمالها في كلامهم وجريها على ألسنتهم ، وهم أبداً يحذفون لكررة الاستعمال كقولهم : « لا أدر ، ولم أبل ، ولم يك ، وخذ وكل » وأشباه ذلك ، والأصل :

« لا أدرى ، ولم أبال ، ولم يكن ، وأخذ ، وأكل »
فحذفوا في هذه الموضع وما أشبهها لكررة الاستعمال فكذلك هنا : لما كثر استعمال (سوف) في كلامهم حذفوا منها الواو والفاء تخفيفاً .

والذي يدل على ذلك أنه قد صرحت به العرب أنهم قالوا في (سوف أفعل) : (سو أفعل) فحذفوا الفاء ، ومنهم من قال : (سف أفعل) فحذف الواو وإذا جاز أن يحذف الواو تارة والفاء أخرى لكررة الاستعمال جاز أن يجمع بينهما في الحذف مع تطرق الحذف اليهما في اللغتين لكررة الاستعمال . والذى يدل على ذلك أن السين تدل على ما تدل على سوف من الاستقبال ، فلما شابهتها في اللفظ والمعنى دل على أنها مأخوذه منها وفرع عليها .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن الأصل في كل حرف يدل على معنى ألا يدخله الحذف وأن يكون أصلاً في نفسه ، والسين حرف يدل على معنى ؟ فيبنيغي أن يكون أصلاً في نفسه لا مأخوذاً من غيره .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين : أما قولهم « إن (سوف) لما كثر استعمالها في كلامهم حذفوا الواو والفاء لكررة الاستعمال قلنا هذا فاسد ؛ فان الحذف لكررة الاستعمال ليس بقياس ليجعل أصلاً محل الخلاف ، على أن الحذف ولو وجد كثيراً

في غير الحرف من الاسم والفعل فقلما يوجد في الحرف، وإن وجد الحذف في الحرف في بعض الموضع فهو على خلاف القياس فلا يجعل أصلا يقاس عليه.

وأما مارووه عن العرب من قولهم في (سوف أفعل) : (سو أفعل) و (سف أفعل) فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إن هذه رواية تفرد بها بعض الكوفيين ؛ فلا يكون فيها حجة

والوجه الثاني : إن صحت الرواية عن العرب فهو من الشاذ الذي لا يعبأ به لقلته .

والثالث : أن حذف الفاء والواو على خلاف القياس ؛ فلابينبغي أن يجمع بينهما في الحذف لأن ذلك يؤدي إلى ما لا نظير له في كلامهم ؛ فإنه ليس في كلامهم حرف حذف جميع حروفه طليباً للخفة على خلاف القياس حتى لم يبق منه إلا حرف واحد ، والمصير إلى ما لا نظير له في كلامهم مردود .

وأما قولهم : «إن السين تدل على الاستقبال كما أن (سوف) تدل على الاستقبال» قلنا : هذا باطل ؛ لأنه لو كان الأمر كما زعمتم لكان ينبغي أن يستويان في الدلالة على الاستقبال على حد واحد ، ولا شك أن (سوف) أشد تراخيأ في الاستقبال من السين ، فلما اختلفا في الدلالة دل على أن كل واحد منهما حرف مستقل بنفسه غير مأْخوذ من صاحبه والله أعلم ». (١)

(١) الانصاف في مسائل الخلاف لابن الأباري ص ٣٧٩ (مطبعة الاستقامة في القاهرة) .

جرى بعض الباحثين قدماً وحديثاً على رد الخلاف النحوى بين هذين المصرين العربين إلى السياسة، وهو رأي سطحي لا يثبت عند التدقيق: فأهل النظر في كل فن تتبين أنظارهم كثيراً دون أن يكون للسياسة أو غيرها في ذلك أثر ، وإنما هو الاجتهاد المحسن ، وهؤلاء أئمة البصريين يختلفون - فيما بينهم - اتجاهًا واجتهاداً في مسائل كثيرة . نعم ربما كان للسياسة أثر ما في ميل الأمراء للعباسيين إلى الكوفيين ، لكن هذا شيء وتجهيه الفن إلى اتجاه خاص شيء آخر .

أما هذه الأحداث التي كانت تكون بين كوفي وبصري في قصور الحكم فنوع من الدفاع عن القوت أولاً ، وميل إلى العصبية البلدية (١) آخرأ . ولا تظن أن ما مر بك من مشاحنات بينهم كان يصرف بعضهم عن الانتفاع بعلم بعض ، وحسبك أن تعلم أن الفراء مات « وتحت رأسه كتاب سيبويه » وأن الكسائي وهب للأخفش خمسين ديناراً لقراءته كتاب سيبويه عليه ، وأنه « سلخ كتابه في معاني القرآن من كتاب الأخفش » (٢) وأن

(١) لما نعى الأحمر إلى الفراء وكلاهما كوفي (وكانت بينهما وحشة) ، ذكره بخير وأثني عليه ، فقال أهل زمانه : « لم يذكره لمحة له ، وإنما ذكره ليكثر أهل البصرة بأهل الكوفة - إنباء الرواة ٣١٧/٢ .

(٢) بنية الوعاة ص ٣٥٨ وانظر إنباء الرواة ٣٧/٢ حيث قول الأخفش: سألني الكسائي ان أؤلف له كتاباً في معاني القرآن ، فألفت كتابي في المعاني فجعله أماماً ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما » هذا وذكروا ان (معاني الكسائي) لو قرئ عشر مرات لاحتاج من يقرؤه أن يقرأه - إنباء الرواة ٢٦٥/٢ .

الجاحظ لما عدد مفاخر البصرة على الكوفة قال : « و هؤلاء يأتونكم بفلان و فلان و بسيويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله ». ولما اشتري الجاحظ كتاب سبيويه من ميراث الفراء رأه أثمن ما يهدى إلى محمد بن عبد الملك الزيارات ، فلما دخل عليه وقد افتصد سأله : « ما أهديت لي يا أبا عثمان » ؟ قال : « أطرف شيء : كتاب سبيويه بخط الكسائي وعرض الفراء » ! إلى غير ذلك من الأخبار التي إن صدقها فدلالتها على العصبية البلدية ظاهرة ، وإن ذهبت إلى وضعها أو التزيد فيها فالدلالة أظهر .

لم يختلف نحاة المصريين تبعاً لاختلاف سياسة بلديهما ، فليس للسياسة تأثير مباشر في ذلك ، وإنما كان التكتل استجابة للعصبية ليس غير :

أنشئت البصرة والكوفة على عهد عمر بن الخطاب ؛ وانقضت سنون من عهد عثمان والمصران كالبلد الواحد ولبعض القبائل جماعات في كل منها ، فلما كان الشعب أيام عثمان أُسهم العراقيون فيه ؛ وآلت الأمور إلى قتل الخليفة والفنن المتلاحقة بعد أن انضم البصريون في وقعة الجمل إلى عائشة وطلحة والزبير وانضم الكوفيون إلى علي ، وكانت الملحمة بينهما ، واستحرَّ القتل ، وكان لكل فريق مجررة هائلة في الفريق الآخر .

فمن ثم العداوة والتخاصم والتنافس بين البلدين . فلما انقضى عهد القلاقل خلف في أذهان الفريقين قصصاً وأدباً وشعرأ

ووقاءٌ تذكر بالفخر تارةً وبالوجيعة تارةً أخرى (١) .

فهذا ما ولدت العصبية والتنافس بين وفود الفريقين ورجالاتهم في الأسمار ومجالس الأمراء .

ولئن كانت احداث سياسية خاصة هي المفرقة قديماً ، انها تطورت مع الزمن وتحول اتجاهها ، حتى تبلورت في عصبية للبلد (٢) وثبتت عليه كما نجد انماطاً من ذلك في مثل كتاب البلدان للمهداني ، بل ان بعضهم كان يؤلف في مفاخر بلده كما فعل الهيثم بن عدي الكوفي (٣٠٩) فألف كتابه (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة) (٣) .

(١) انظر اخبارها في معجم البلدان لياقوت ، وفي كتاب البلدان للمهداني ففيهما طرائف ، وانظر على سبيل التمثيل ابيات اعشى همدان ينتصر للكوفة على البصرة :

اكسع البصري إن لاقيته إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا يجعل البصري إلا في النفل
إذا فاخرّموننا فاذكرروا ما صنعتنا بكم يوم الحمل
بين شيخ خاصب عشونه فإذا يخطر في سابقة
جاءنا فنخناه ضحىً ذبح الحمل
وعفونا فنسّيم عفونا وكفرتم نعمة الله الاجل
كسمه : ضربه بصدر قدمه على مؤخره - الرفل : المتختر ، الكثير الحم - السابغة :
الدرع الطويلة . وانظر في ذلك كتابنا (عائشة والسياسة) .

(٢) قال المحافظ في كتاب (البلدان) وقد ذكر فضل البصرة ورجالها : وفيمااليوم ثلاثة رجال لنبويون ليس في الأرض مثلهم ، ولا يدرك مثلهم - يعني في الاعتدال والاحتجاج والتقريب - ابو عثمان المازني والثاني العباس بن الفرج الرياشي ، والثالث أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن الزبيدي . وهؤلاء لا يصاب مثلهم في شيء من الأمصار » . وكتب كتابه هذا في شهر ربيع الاول سنة ٢٤٨ھ - من انباء الرواة ٢٤٨/١ .

(٣) إرشاد الاريبي ٣١٠/١٩ .

المدافعة عن اسباب العيش أولاً وقبل كل شيء ثم العصبية للبلد لا للسياسة (عاملأ ثانوياً) هما اللذان لوّنا الخلاف النحوي ولم يوجداه ، لوّناه بشيء من العنف رأيت أنماطاً منه في المناظرات التي مرت بك ؛ وفي مثل قول اليزيدي يمدح نحوبي البصرة ويهجو الكسائي واصحابه :

يطالب النحو ألا فاكمه
وابن أبي إسحاق في علمه
عيسي وأشياه لعيسى ، وهل
هيئات ، إلا قائلة عنهم
 فهو لنهاجم سالك
ويونس النحوي لاتنسه
وقل لمن يطلب علمأ : ألا
«يا ضيعة النحو به مغرب
أفسده قوم وأزروا به
ذوي مراء وذوي لكتة
لهم قياس أحدهم هم
فهم من النحو - ولو عمروا
اما الكسائي فذاك امرؤ
وهو لمن يأتيه جهلا به

بعد أبي عمرو وحماد
والزين في المشهد والنادي
يأتي لهم دهر بآنداد
أرسوا له الأصل بأوتاد
لفضلهم ليس بجحاد
ولا (خليلا) حية الوادي
ناد بآعلى شرف ناد :
عنقاء أودت ذات إصعاد
من بين أغاثام وأوغاد
لشام آباء واجداد
قياس سوء غير منقاد
أعمار عاد - في (أبي جاد)
في النحو حارٍ غير مرتد
مثل سراب اليد للصادي (١)

وهجا المبرد البصري ثعلباً الكوفي بقوله :

(١) أخبار التحويين البصريين ص ٤ - رجل أعمق من قوم أغاثام : لا ي Finch . الحال : المائز .
(أبي جاد : أبجد ، هوز ، الخ) يريد أنهم لا يتتجاوزون أول العلم لضعف استعدادهم
كما أن الصبي في الكتاب أول ما يتعلمه حروف (أبجد هوز) .

أقسم بالمبسم العذب
لو أخذ النحو عن رب
مشتكى الصب إلى الصب
ما زاده إلا عمي القلب
فتمثل ثعلب :

يشتمي عبد بنى مسمع
ولم أجبه لاحتقاري له من ذا يعض الكلب إن عضا (١)
وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري ، فأنكر عليه
 أصحابه الكوفيون وقالوا : مثلك لا يصلح أن يمضي إلى
بصري فيقال غداً : إنه تلميذه (٢) ، فاستجاب لهم عصبية
وحرم نفسه الخير .

لكن خته (زوج ابنته) أحمد بن جعفر الدينوري لم يبال
ذلك ، فكان يخرج من متزل ثعلب وهو جالس على باب
داره ، فيتخطاه ويتخطى أصحابه ، ويتوجه إلى المبرد ومعه
محبرته ودفتره ليقرأ عليه كتاب (سيبويه) ، وكان ثعلب يعاتبه
في ذلك ويقول : «إذا رأك الناس تمضي إلى هذا الرجل وتقرأ
عليه ، يقولون ماذا؟» فلم يكن يلتفت إلى قوله (٣) .

وما بلغت العصبية والضلال عن أسباب الرزق بين الفريقين
مدى سافراً هذا السفور الذي تراه في الخبر الآتي :
«لما أصاب الكسائي الوضح (البرص) كره الرشيد ملازمته
أولاده فأمره أن يختار لهم من ينوب عنه من يرضاه ، وقال :

(١) ترجمة ثعلب في بقية الوعاة ص ١٧٣ .

(٢) إرشاد الاربيب ١١٥/٥ ، ثم ذكر ياقوت أن ابن الأباري أورد هذه القصة ليرفع من
ثعلب والكوفيين عصبية ، فوضع منهم .

(٣) انظر ترجمته في إنباء الرواة للقطبي (٣٣/١) وبقية الوعاة للسيوطى .

«إنك كبرت ، ولسنا نقطع راتبك » فدافعهم خوفاً أن يأتיהם برجل يغلب على موضعه ، إلى أن ضيق الأمر عليه وشدّد ، وقيل له : «إن لم تأت برجل من أصحابك اخترنا لهم من يصلح » ، وكان بلغه أن سيبويه يريد الشخص إلى بغداد والأنفس ، فقلق لذلك ، وعزم على أن يدخل عليهم من لا يخشى غائلته ، فقال لعلي الأحمر : «هل فيك خير ؟» قال : «نعم» قال «قد عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد» فقال الأحمر : «لعلني لا أفي بما يحتاجون إليه !» فقال الكسائي : «إنما يحتاجون كل يوم إلى مسائلتين في النحو ، وثلاثين من معاني الشعر وأحرف من اللغة ، وأنا ألقنك (ذلك) كل يوم قبل أن تأتיהם فتحفظه وتعلمه» وكذلك كان (١).

هذا ومن الخير ألا نغفل هنا خبراً يردّ الأمور إلى نصابها فيما عرف عن بعض الكوفيين من أعمال علمية ، فقد قال سعيد بن مسعدة الأخفش «سألني الكسائي أن أُولف له كتاباً في (معاني القرآن) فألفت كتابي في المعاني ، فجعله إماماً لنفسه ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما !» (٢) وقد مر بك الخبر آنفًا . وتحفظ كتب الأخبار حادثاً صريحاً في استغلال نفوذ الحكم لنصرة الكوفة على البصرة يرويه أبو حاتم ، قال :

(١) بغية الوعاة ص ٣٤ عن إرشاد الاريب . وقد اعرض أصحاب الرشيد وقالوا (انما اخترت رجالاً من أهل النوبة (الجندي) وليس متقدماً في العلم) ، فدافعهم وشهد له . ولم يزل الأحمر يتعلم من الكسائي ويعلم ابنه الرشيد حتى صار مع طول الأيام نحوياً وقد أتحفنا هذا الخبر بنموذج من براجم التعليم الخاص يومئذ .

(٢) طبقات النحوين واللغويين ص ٧١ .

«قدم علينا (بالبصرة) محمد بن مسلم الكوفي عاماً على
الخروج والصدقات ، فصرت إليه مسلماً فقال لي : «من
علماؤكم بالبصرة؟» قلت :

«المازني من أعلمهم بالنحو ، والرياشي من أعلمهم باللغة ،
وهلال الرأي من أفقهم ، وابن الشاذكوني من أعلمهم
بالحديث ، وابن الكلبي من أعلمهم بالشروع ، وأنا أنساب
إلى علم القرآن .» فقال لكتابه : «اجمعهم في غد» .

فلما اجتمعنا قال : (أيكم المازني؟) فقال أبو عثمان :
(هأنذاك اصلاحك الله) فقال : (ما تقول في كفارة الظهار :
أيجوز فيه عتق غلام اعور؟) فقال له : (اصلاحك الله ،
وما علمي بهذا؟ (هذا) يحسنه هلال الرأي .) فالتفت إلى
هلال الرأي فقال : (رأيت قول الله عز وجل : «يا أيها الذين
آمنوا عليكم أنفسكم (١)» بم انتصب هذا الحرف؟) فقال :
(أعزك الله ، أنا لا أحسن هذا ، إنما يحسنه الرياشي) .

قال : (يا رياشي كم حدثياً روى ابن عون عن الحسن؟)
قال : (اصلاحك الله ، هذا يحسنه ابن الشاذكوني) .

فالتفت إلى ابن الشاذكوني فقال : (كيف تكتب كتاباً بين
رجل وامرأة أرادت مخالعته على إبرائه من صداقها؟) فقال :
(أعزك الله ، هذا يحسنه ابن الكلبي) .

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

فقال لابن الكلبي : (من قرأ «ألا إنهم تشنوني صدورهم (١) أعزك الله هذا يحسنه أبو حاتم»).

فقال لأبي حاتم : «كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة وما جرى عليهم العام في ثمارهم؟» فقلت له : «أعزك الله ، لست صاحب بلاغة وكتب ، إنما أنساب إلى علم القرآن».

فقال : «انظر إليهم قد أفي كل واحد منهم ستين سنة في فن واحد من العلم حتى لو سئل عن غيره لساوى فيه الجھال ؟ لكن عالمنا بالکوفة لو سئل عن هذا كله أصاب » يعني الكسائي اه - المصنون للعسكرى ص ١٣٢ .

أثرت العصبية ما رأيت فيما كان بينهم ، اما النحو نفسه فلم يتاثر بشيء من ذلك ، وإنما حمل طابع العلماء أنفسهم في التفكير والتنسيق سعةً وضيقاً ونظاماً وبلبلة .

ولما تقدم الزمن ، واستوى عند الحكام نحويو البصرة ونحويو الكوفة ، غاب السبب الأول ، وبقيت العصبية للبلد تحالف بعض النفوس حتى صرت ترى العالم الذي ينبغي أن يتتره عن العصبية في العلم - ولو بعد ذهاب أسبابها المادية على الأقل - تداعبه هذه التزعة ، فيجمع بين شيئين متنافرين لا لسبب الا أنهما نبتا في بلد يزعه . وأنا أقدم لك نموذجاً لهذه الظاهرة :

(١) سورة هود الآية ٥ . وهذه هي قراءة ابن عباس وعلي بن الحسين وولديه زيد و محمد ، ومجاهد وابن يعمر ، ونصر بن عاصم ، والحدري ، وابن أبي إسحاق وغيرهم . والكلمة مضارع اثنوف على وزن (افموعل) ، وقراءة الامصار اليوم : (يشنون) .

الخليل بن أحمد السجزي القاضي المتوفي سنة (٣٧٨ هـ) ، فقد كان حنفياً في الفقه وكوفياً في النحو ، وفاخر بذلك يقول :
سأجعل لي النعمان في الفقه قدوة

وسفيان في نقل الأحاديث سيدا
وأجعل في النحو الكسائي قدوة
ومن بعده الفراء ما عشت سر مدا
وان عدت للحج المبارك مرة
جعلت لنفسي كوفة الخير مشهدا

ومن كان حنفياً فأشبه مذاهب النحو بالمذهب الحنفي مذهب البصرة لاحكام القياس فيه ، ولكنه الميل النفسي الشديد إلى الكوفة ، والولوع بكل ما أنتجت حدواً القاضي على أن يكون كوفياً في النحو والفقه والحديث مهما تنافرت أصول هذه الفنون في الكوفة .

وقد كان لهذه العصبية شيء من (رد الفعل) عند العلماء جعلهم يشكرون في كل ما ينقل من علم كوفي : هذا أبو حاتم السجستاني يسمع تغالي الكوفيين في حمزة الزيارات - أحد قراء الكوفة - فيسأل عنه أبا زيد والأصممي ويعقوب الحضرمي وغيرهم من العلماء ، فيجمعون على أنه لم يكن شيئاً « ولم يكن يعرف كلام العرب ولا النحو ولا كان يدعى ذلك ... ». قال أبو حاتم : « وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون ، فقد صيره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبهت ،

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (مطبعة روضة الشام) ١٧٣/٥ .

وقول ذوي اللحى العظام منهم : « كانت الجن تقرأ على حمزة » ... وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرف الساكن من المتحرك ، ولا مواضع الوقف والاستئناف ، ولا مواضع القطع والوصل والهمز ؟ وإنما يحسن هذا أهل البصرة ، لأنهم علماء بالعربية ، قراء رؤساء » (١) .

وكان يكفي أن يشوب علم العالم أو تأليف الكتابأخذ عن الكوفيين حتى ينجز بذلك عند الفقاد (٢) .

والظاهر أنه كان بين أهل البلدين فيما بعد ، تنكست وإرسال قصص وأخبار يحمل فيها أهل البلد على أهل البلد الآخر ، وراجت هذه النكات - على نحو ما نرى اليوم بين بلدتين متجاورتين كحمص وحماة في الشام - وزاد هذا الأمر حتى استحق أن تؤلف فيه المؤلفات فهذا ابن حبان البستي (٣٥٤) على جلالة قدره يؤلف كتاباً في عشرة أجزاء في (ما أغرب الكوفيون عن البصريين) ، وكتاباً في ثمانية أجزاء في (ما أغرب البصريون عن الكوفيين) (٣) .

تستطيع بعد هذا البيان أن تطمئن إلى شيئاً :

(١) مراتب النحوين ص ٢٧ .

(٢) انظر كلامهم على أبي عبيد القاسم بن سلام وعلى كتابه المشهور (الغريب المصنف) - مراتب النحوين ص ٩٣ .

(٣) معجم البلدان : (مادة بست) . ولم أطمئن إلى كون هذين الكتابين في الخلاف النحوي ، إذ لم ينقل عن ابن حبان تأليف في النحو ولا تصدر لتدريسه ، أما الاخبار فله بها ولوغ وله فيها تأليف .

- ١ - ليست السياسة عاملاً في تكوين النحو الكوفي على ما كان عليه .
- ٢ - إن الصورة التي في نفوس الناس قديماً وحديثاً عن حدة التجاذب والتدافع بين النحو الكوفي والنحو البصري مبالغ فيها .

٥ - كتب الخلاف

عرفت أن النحاة - والبصريين منهم خاصة - قد انتزعوا علل النحو من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة بالملاظفة والررق (ص ١٠٠) . فاعلم الآن أن منهم من ألف في الخلاف بين النحاة ، على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التي ألفوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية ، وهذا ابن الأنباري يقول في مقدمة كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) بصرامة :

«... سألوني أن أشخص لهم كتاباً لطيفاً يستعمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحوبي البصرة والكوفة ، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة ، ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذا الأسلوب ، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف ، ولا ألف عليه أحد من الخلف ... واعتمدت في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة ، على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف ...».

وهكذا تجد تأثير العلوم الدينية واضحاً بارزاً في علوم اللغة

كلها مادتها ومنهجها . وإذا رجعت إلى كتاب الاقتراح للسيوطني وجدتهم يصرحون تصريحًا سافرًا أيضًا بأنهم وضعوا للخلاف في النحو ولمناقشات مسائله أصولاً كأصول الخلاف بين الشافعية والحنفية .

أقدم من ألف في الخلاف ، فيما علمت ، أحمد بن يحيى ثعلب الكوفي (- ٢٩١ هـ) ، ولم نعرف هل أداره على أصول أخلاق الفقه أو لا ، وأيًّ كان فالليك ما عثرت عليه من للكتب التي ألقت في الخلاف ، مرتبة على وفيات أصحابها :

١ - اختلاف النحويين - لثعلب (- ٢٩١) .
٢ - المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والковيون (١) - لابن كيسان (- ٣٢٠) وقد ردَ فيه على ثعلب .

٣ - المقنع في اختلاف البصريين والkovيين - لأبي جعفر النحاس (- ٣٣٨) (٢) . وقد رد فيه على ثعلب .

٤ - الرد على ثعلب في (اختلاف النحويين) لابن درستوية (- ٣٤٧) .

٥ - كتاب الاختلاف لعيid الله الأزدي (- ٣٤٨) .

٦ - الخلاف بين النحويين للرماني (- ٣٨٤) . وله كتاب آخر أخص هو (الخلاف بين سيبويه والبرد) .

٧ - كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين لابن فارس

(١) في بقية الوعاة : (ما اختلف فيه البصريون والkovيون) فأثبتنا الاسم كاملاً من الفهرست لابن الثديم .

(٢) بقية الوعاة وإرشاد الاريـب ٤/٢٢٨ ، وفي بقية الوعاة : (المبهر في اختلاف البصريين والkovيين) .

(١) (٣٩٥) (١).

١٠، ٩ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والkovيين لأبي البركات الأنباري (- ٥٧٧) وقد طبع . وله كتاب آخر في الخلاف اسمه : (الواسط) ، ذكره ابن الشجري في أماليه ونقل منه . (انظر ١٤٨ ، ١٢٠:٢ ، ١٤٨) من الأمالى لابن الشجري .
وقد استدرك ابن إياز على ابن الأنباري مسائل خلافية كثيرة فاته في كتابه (الإسعاف) الآتي ذكره قريباً .

١١ - التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والkovيين (٢) لأبي البقاء العكبي (- ٦١٦).

١٢ - الإسعاف في مسائل الخلاف - لابن إياز (- ٦٨١) (٣) والظاهر أن هناك كتاباً كثيرة في الخلاف ، وأنه كانت له صحة في المجالس والبيئات العلمية ، وكان التعصب على أحد الفريقين بادياً في بعض هذه الكتب ، ولذا استدرك صاحب (الإنصاف) الذي قدمت لك فقرة من مقدمته محترساً بقوله (على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف).

(١) إرشاد الاربيب ٤/٤ وذكر في بغية الوعاة باسم (اختلاف النحوة).

(٢) في بغية الوعاة (التعليق في الخلاف) . وقد رأيت هذا الكتاب مخطوطاً في دار الكتب المصرية وهو رسالة صغيرة في ١٨ ورقة ضمن مجموع رقمه (نحو ش ٢٨) أوله : هذا كتاب مسائل خلافية في النحو تكلم فيها باختصار على ١٤ مسألة .

(٣) ومن تكلم على الخلاف ولم يخصص له كتاباً مستقلاً أحمد بن جعفر الدينوري (- ٢٨٩) خنز ثلث وقد مر ذكره ص ٨٤ فذكروا أنه ألف كتاباً في النحو سماه «المذهب» وذكر في صدره اختلاف الكوفيين والبصريين وعوا كل مسألة إلى صاحبها ، ولم يعتل لواحد منهم ولا احتاج لمقالته ، فلما أمعن في الكتاب ترك الاختلاف ونقل مذهب البصريين - إحياء الرواية ٢٤/١ وبذلك يكون أول الخاقفين في هذا الموضوع وفاة من ذكرناهم .

المذهب البغدادي

كانت بغداد حاضرة الحلافة العباسية هي السوق التي كان يروج فيها العلم والأدب ، فكان يرتحل إليها العلماء من الأقطار كافة ، كلٌ يحمل إليها طابع بلده الخاص ، أو بتعبير آخر مدرسة بلده في الفن المختص به ، فاللتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفات ، احتكت وتمازجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصرىون أيضاً ، ونشأت طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكانت ما عرف بالمذهب البغدادي الذي أرخه ووصفه أبو الطيب اللغوي بهذه الكلمات الموجزات :

« فلم يزل أهل المصريين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً ، وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك ، فقدموهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع ، فاختلط العلم . » (١)

(١) مراتب النحويين ص ٩٠ وانظر فيه أيضاً ص ١٠١ حيث يقول : « بغداد مدينة ملك وليس بمدينة علم . وما فيها من العلم فمتقول إليها ... الخ » .

وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال . ولما عرض أبو الطيب لأشهر أعلام المذهب البغدادي ، وهو ابن قتيبة ، نقهه بما لا يخرج عما تقدم فذكر الذين أخذ عنهم ، ثم قال : « إلا أنه خلط بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات . وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا ، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله و (عيون الاخبار) و (المعارف) و (الشعر والشراة) و نحو ذلك مما أزرى به عند العلماء ، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له . » (١)
وقد عقد ابن النديم لهذه الطبقة باباً عنوانه (من خلط بين المذهبين) عد منهم ابن قتيبة (- ٢٧٠) وأبا حنيفة الدينوري (- ٢٩٠) وأبن كيسان (- ٣٢٠) ومحمد بن احمد بن منصور الوراق (- ٣٢٠) ونقطويه (- ٢٢٣) . (٢)

ونستطيع أن نزيد على هؤلاء : سليمان الحامض (- ٣٠٥) وأبا علي الأصفهاني الملقب بلغدة ، وابن السراج (- ٣١٦) ، وأبا بكر بن الخطاط (- ٣٢٠) وأبا عبد الله الكرماني (- ٣٢٩) وكلاب بن حمزة العقيلي وغيرهم . وللكشي كتاب (تخليط المذهبين) . والطابع البصري أغلب على ما يسمى بالمذهب البغدادي في الجملة كما هو الشأن في بقية الأمصار . ولا عجب

(١) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٢) الفهرست ص ١١٥ وقال ابن النديم : « كان ابن قتيبة يغلب في البصرى إلا أنه خلط بين المذهبين ، وحكي في كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه ، غالباً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها . » اه وانظر في هذا المصدر ترجمة نقطويه أيضاً .

في ذلك فان الأصالة التي فيه فرضت نفسها كما يقولون ، وكان ما أخذ من المذهب الكوفي مسائل اتجهوا فيها اتجاهًا أصح وأيسر .

وانتهينا إلى لزوم تصحيح التسمية الشائعة : المذهب البصري والمذهب الكوفي والمذهب البغدادي ، وأن الأصوب ان يقال : نحاة بصريون ونحاة كوفيون ونحاة بغداديون ... الخ . يختلف سهم كل فريق من حيث الترعة السمعاوية والترعة القياسية عن نصيب غيره كما وكيفاً .

المدرسة الأندلسية

كان الشاميون في الجيش الأندلسي الفاتح جنداً متميزاً ، فلما انقضى الفتح واستوطن الفاتحون الأندلس يعمرونها بحضارتهم وأخلاقهم وما أشروا به على الدنيا من قيم سامية وتعاليم نبيلة ، تفرق جند الشام على أمصار الأندلس ، فمن ثم يجد المعن في تاريخ الأندلس سمات بارزة من آثار الشام في العادات والأخلاق والحضارة والمعالم وال عمران ، كما يجد زائر الأندلس اليوم بقايا مما ذكرت ماثلة للعيان حتى على سحن السكان اليوم وبعض عاداتهم الحميدة .

من ذلك العلوم الإسلامية التي انتقلت إلى الأندلس مع الجندي الفاتح ومن أتى بعدهم ، من شريعة وقرآن ، وحديث ورياضيات وفلسفة (١) ... الخ .

(١) سلم بملامح المدرسة الشامية في النحو في خاتمة هذه الكلمة .

وكان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مرّ بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شرعاً ونثراً دراسة فيها لغة وأدب ونحو وحديث وقرآن ، ثم بدأت الفنون تتميز مع الزمن ، وكان أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتاب الكسائي (١) ، ثم كتاب سيبويه ؛ فلما دخل كتاب سيبويه عكف عليه الأندلسيون دراسة وحفظاً ، واشتهر بحفظه عدد منهم ثم تولوه تدريساً وشرحاً وتعليقًا . فطبع نحو الأندلس بالطابع البصري في أغلب مسائله ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف وعرف من أعمالهم أبو علي القالي مؤلف (الأمامي) و (البارك) و (فعلت وأفعت) و (المقصور والممدود) ، ثم ابن القوطية صاحب كتاب (الأفعال) ، « وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي » وتتابع علماء الأندلس في شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدتها ، واحتلوا من نحاتهم في المئة السابعة ابن خروف (- ٦٠٢) وابن عصفور الإشبيلي (- ٦٦٢) والشلوبيني ، بعد البطليوسى (- ٥٢١) وابن الطراوة والسهيلي (- ٥٨٣) من أعلام المئة السادسة .

وكان خاتمة علماء الأندلس اثنان رزقا الشهرة ورحا إلى المشرق فبنا علمهما فيه وكثرت تواليفهم وكتب لها الديوع حتى

(١) انظر تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٨٥ وما بعدها . أدخله جودي بن عثمان العبي الموروري الطليطي الأصل ، رحل إلى المشرق وأخذ عن الكوفيين الرياشي والفراء والكسائي ، مات سنة ١٩٨ هـ - بنية الوعة ص ٢١٤ .

عصرنا هذا ، عنيت الإمام ابن مالك الجياني صاحب الألفية والإمام أبو حيان الغرناطي صاحب التفسير الكبير (البحر) و (الارتشف) في النحو .

عكف علماء الاندلس إذاً وطلابه على كتب البصريين والковيين فدرسواهما واختاروا منها ، وتكون لهم مذهب خاص (١) كانوا فيه إلى مذهب البصريين أميل ، وكذلك كان أكثر العلماء الوافدين عليهم من المشرق (٢) أو النازحين إليه منهم لطلب العلم . وهكذا كان رأس العلوم عندهم النحو والشعر . ويتحدث عن نزعتهم هذه ابن سعيد فيقول «النحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة» (٣) .

فلما نزح متأخروهم بعد النكبة ، بعضهم إلى المغرب وبعضهم إلى الشام ومصر ، نشروا علمهم في هذه الأقطار ، وكان مذهبهم كذلك بصرياً في أكثره ... إلى أن جاء ابن مالك الجياني الأندلسي نزيل دمشق ثم ابن هشام الأنصاري بعده (ولم يكن أندلسياً) فجددا في النحو بعض التجديد ، وكانا يميلان إلى التوسيعة ، فرجحا في بعض المسائل أقوال الكوفيين حين رأيا الرواية الصحيحة تؤيدتهم ، ولم يتبعدا

(١) انظر تراجم أعلامهم ، مثلا ابن الوزان القيرواني (- ٣٤٦) ذكروا أنه أعلم من المبرد وشلب وأنه بصري المنصب مع علمه بمذهب الكوفة ، وأن له أوضاعاً في النحو والله . - انظر ترجمته في (إنباء الرواية للقطبي) ١٧٢/١ - ١٧٥ .

(٢) في ترجمة أبي علي القالي الوافد على الأندلس والذي أمل في جامع الزهراء بقرطبة كتابه العظيم «الإمالي» أنه أظهر فضل البصريين على الكوفيين ونصر مذهب سيبويه على من خالقه من البصريين . انظر إنباء الرواية ٢٠٥/١ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٣٠/٣ .

بأقوال البصريين (١) ، واستشهادا بالحديث ، فكانا مجتهدين إلى حد ما ، ذويُ أثر بالغ في الدراسات النحوية ، وما زالت كتبهما تدرس حتى الآن في معاهد العلم ، وخدمت بشرح وحواش وتقريرات كثيرة .

كنت رأيت قبل سبع عشرة سنة : أن النحو الأندلسي مر بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، وأن طابعه الغالب الذي استقر طابع القياس الذي شرعه نحاة البصرة ، وأن الأندلسيين أشبهوا في هذا أيضاً للشاميين حين أضافوا إلى ذلك عناية باللغة بالسماع (٢) .

فلما كنت في رحلة علمية تضمنت زيارة الأندلس وطلب إلى القائمون على صحيفة (معهد الدراسات الإسلامية في مدريد) الإسهام بموضوع في مجلتهم ، وكان السؤال المطروح : « هل في النحو مذهب أندلسي » (٣) .

تساءلت : أليس هناك جديد أضيفه إلى ما تقدم عن نحو الأندلس ؟ .

إن رحلة قمت بها سنة ١٩٥٦ م باحثاً في نفائس المخطوطات بالأسكوريال ومكتبات المغرب العامة وخاصة جعلتني أتهيب الجواب . وأنا موقن أنه لن نصل إلى ما تطمئن إليه النفس

(١) كلمة أبي حيان - الاقتراح ص ١٠٠ .

(٢) في أصول النحو ص ١٨٢ من الطبعة الأولى (الجامعة السورية ١٩٥١) .

(٣) نشر بحثي بهذا العنوان في الصحيفة المذكورة (المجلدين السابع والثامن) سنة ١٩٥٩ - ١٩٦٠ بالنص المدرج هنا .

حتى ينشر قدر كاف من هذه النفائس المصنون حتى بأسماها ، وحتى يسهم في التعاون على ذلك أفالصل المغاربة وهم - على ما تحققت بيضني - غير قليل ، فيبحث كل فيما تصل إليه يده من كتب الفن يصفها ويصنفها وينشر ذلك مع ما ينتهي إليه من رأي في هذه المسألة ، فإذا شاعت هذه الآراء رجوت أن تضيئ المذاكرة حولها نواحي مظلمة في تاريخ النحو . ولأحاول الآن قول شيء في الموضوع مع خفوت الشعاع وضياع المعلوم التر في المجهول الغزير ولا جود إلا بال موجود كما يقولون .

يعرف المطلعون عنية الأندلسيين بعلم النحو منذ الزمن الأقدم ، ويحفظون كلمة ابن سعيد : «النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة» (١) وليس في هذا مبالغة قط . ولقد حلا لي استشارة الأرقام فعمدت إلى «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطى ، فأحصيت ما فيه من ترجم فاذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات ، ووجدت للأندلسيين بينها نحواً من (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ في هذا المصدر علماء هذا القطر القليل المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامي كله .

وما أكثر ما تتكرر هذه المدن والقرى الأندلسية في ترجمتهم ونسبهم : باجه ، شريش ، بلنسية ، جيان ، مالقة ، سرقسطة ، دانية ، بيسة ، المرية ، قلعة رباح ، لبلة ، لوشة ، مورور ،

(١) نفح الطيب ٢٠٦ / ١ (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٩)

إستجة ، الجزيرة ، شلب ، شدونة ، وادي الحجارة ، أشونة ، بطليوس ، رية . . . الخ أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة فحدث عن كثرة وروتها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء (٧١٢) من تواليف ، دار رأسك من كثرتها وعرفت: لم يتهيب للباحث من إطلاق حكم فيتراث لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف ؟ ومع هذا فإلقاء لمحات جزئية هنا وهناك في الموضوع لا يضر ، بل هو تمهيد للوصول إلى النظرة المحيطة الشاملة على قدر الإمكان ، وتجنّب لما يمكن أن يقع فيه الباحث من أخطاء شائعة .

لا يخطيء دارس مطولات النحو أن يقع على آراء الأندلسيين في جزئيات نحوية ، فأسماء ابن خروف (٦٠٩ هـ) وأبن عصفور (٥٩٧ - ٦٦٣ هـ) والشلوبي (٥٦٢ - ٦٤٥ هـ) وأبن الصائع (٦٨٠) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشارقة حين عرض الآراء في الخلاف ، إلا أن متصفها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخريجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى : ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة .

ويريد بعض الناس أن يذكر ابن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) وأبا حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) علمين بارزين للدرسة الأندلسية كان لها أثر واسع في النحو وتعليمه في المشرق ، وهذا ظن يروج ابتداء لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة الأولى :

فابن مالك خرج من الأندلس إلى المشرق صغيراً ، ولم يذكروا له شيئاً في النحو غير الشلوبيني ، قالوا : إنه قرأ عليه نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، فلما حل الشام سمع من بعض شيوخها ، ولم يجد له أبو حيان بعد البحث « شيئاً مشهوراً يعتمد عليه . . . لأنها إنما أخذت هذا العلم من خاصة نفسه » (١) ، « وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية » (١) .

وأمر أبي حيان قريب من أمر ابن مالك : خرج من الأندلس هارباً في شبنته وكان قرأ على بعض شيوخها ثم أتم قراءته وزاول الإقراء في المغرب والمشرق . فإن اعتبرنا الشكل الصوري كان أثر التعليم الأندلسي في أبي حيان قليلاً وفي ابن مالك أقل بكثير ؛ وإن اعتبرنا الجوهر - وحقُّ اعتباره - وجدنا نحو هذين الرجلين في تواليهما مشرقاً محضاً . أما كونهما ذوي أثر واسع في النحو وتعليمه في الشرق فهذا صحيح ومرده إلى شخصيتיהם لا إلى أندلسيتهما ، فأسلوب ابن مالك في نظم مسائل العلم وشرحها وغيره المخلصة الحارة في نشره وإقرائه أغرياً عصرية ، وكان لهما أكبر الأثر في حياته ، فانتفع الناس بعلمه ، وما زال الله ينفع به إلى يوم الناس هذا . أما أبو حيان فآثار حواضر المشرق العلمية في كتبه أظهر من أن تخفي .

والشيء الذي يجوز أن يناقش هنا ما ذكروا من أن ابن مالك وأبن خروف شرعاً الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به في قضيائ اللغة والنحو ، فخالفا بذلك - زعموا -

(١) بغية الوعاة ص ٥٣ (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ م) .

سنة من قبلهم من النحاة ، وإذا كانوا أندلسين جعل بعضهم
هذا الاحتجاج مذهبًا أندلسيًّا .

وكل ذلك وهم لا يقره تاريخ الفن ، ولعل الذي حداهم
عليه كلمة أبي حيان في شرح التسهيل : «إن الواضعين الأولين
لعلم النحو المستقررين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو
وعيسى بن عمر والخليل وسيبوهه من أئمة البصريين ،
والكسائي والفراء وعلي بن مبارك الأحمر وهشام الضرير من
أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك» اه . والتحقيق غير هذا :
فالجوهري ، وابن سиде ، وابن فارس ، وابن جني ،
وابن برى ، ومن بعدهم من أصحاب المعجمات وكتب النحو ،
كلهم احتاج بالحديث ، بل قال السهيلي : «لا نعلم أحداً من
علماء العربية خالف في هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان
في شرح التسهيل وأبو الحسن الصائغ في شرح الجمل وتابعهما
على ذلك الجلال السيوطي» (١)

فترعة الاحتجاج بالحديث إذاً مشرقة قديمة وإنما سار ابن
مالك وابن خروف سيرة من قبلهما من الأئمة المتبعين
في المشرق . ومع جزئية هذه القضية ليس فيها مذهب أندلسي .
وبذلك ننتهي من نقاش كل ما قيل في الموضوع لأقف ووقفة
جديدة مع ابن حزم في كتاب عرفه الباحثون العام الفائد .

(ج) دراسات في العربية وتاريخها للعلامة المرحوم السيد محمد الخضر حسين ص ١٦٨ (طبع
دمشق ١٩٦٠ م) وانظر فصل الاحتجاج بالحديث الشريف مستوف في كتابي «في أصول
النحو» ص ٤١ - ٥٤ ؛ طبعة ثانية .

أرقى صعداً في تاريخ النحو مئتي سنة قبل وفاة ابن مالك لأن معن في نص لابن حزم ، وهو إمام أندلسي ما رأى المشرق قط ، بل ما جاوز « الزقاق » إلى عدوة المغرب – فيما أذكر الآن – وهي منه على قاب قوس ، فهو خالص الأندلسية .

ولا تعجب من وقوفي على ابن حزم ولم يذكر له كتاب في النحو ولا عرف بإمامته فيه ، لأنه لا يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التي سارت بذكرها الركبان ألا يكون من أولي الشأن في النحو بل من أهل الرأي في أصوله ، ومن غير بعيد لو تركت له الشريعة فراغاً أن يترك في النحو آثاراً أصيلة مبتكرة أيضاً .

وأي^١ كان فقد عرج عرضاً في كتابه « التقريب لحد المنطق » على أحد الأساس التي بني عليها النحو فوضع تحته هذه المتفجرة الصغيرة (١) .

« وأما علم النحو (يرجع) إلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين نريد (٢) معرفة تفهمهم لمعاني بلغتهم ، وأما العلل فيه ف fasade جداً » .

وهذا إبطال للقياس جملة ، لأن القياس « حمل غير المنقول

(١) نقلت هذا من مخطوطة فريدة رقمها (٦٨٤٤) بالمكتبة الأحمدية بجامعة الزيتونة بتونس ، حين زيارتي لها سنة ١٩٥٦ م ، واصطبخت معه صورة كاملة عن الكتاب بعونه الأستاذ البخيل السيد حسن حسني عبد الوهاب . وكان العزم أن أقوم بنشره ، فسبقت إلى ذلك مكتبة الحياة في بيروت فنشرته العام الفائت ١٩٥٩ بتحقيق الدكتور إحسان عباس . والنصل المنقول هنا من الورقة (٩٠) من المخطوطة برقيعي ، وفي ص ٢٠٢ من الطبعة الآنفة الذكر .

(٢) الكلمة غير ظاهرة النقط في الأصل المصور ، وهي في المطبوعة (تربيد) ولا معنى لها هنا .

على المنقول في حكم لعنة جامعة بينهما » (١) فإذا كانت العلل فاسدة فسد القياس حتماً إذ عليها بني . وقوله ابن حزم هذه تشريع نحو جيد ولو وجد له منظمون .

ومع أني لا أعقل أبداً نحواً لا قياس فيه ، وددت لو تضافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخططاً كاملاً لنحو « ظاهري » لا قياس فيه ولا تعليل ، كما فعل هو حين استطاع أن ينفي عن الشريعة القياس والتعليق فترك تراثاً ضخماً لمذهب متمسك متين وفق فيه إلى حد بعيد .

وهذا من طبيعة الأشياء ، للفارق العظيم بين الشريعة واللغة : فالله قد أكمل الدين ، ولم ينتقل الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الرفيق الأعلى حتى بين الناس كل ما يجب أن يعرفوه من حلال وحرام ؛ أما اللغة فلا سبيل إلى حصرها في جمل لا يتعداها الناس إلى يوم القيمة ، بل هي متتجددة متوالدة كل لحظة منذ المتكلم الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولو حاول أحد من الأندلسين البناء على الأساس الذي ألقاه ابن حزم لصح - مع شيء غير قليل من التسامح والتتجاوز - أن يكون من ذلك مذهب أندلسي إلى حد ما ، أما رسالة ابن مضاء فليست هناك » (١) .

(١) في أصول النحو . ٦٨ .

(٢) وفاة ابن حزم سنة (٤٥٦ هـ) ووفاة ابن مضاء تتأخر (١٣٦) سنة ورسالته في الرد على النحاة نشرها الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧ م . عمد فيها إلى ما وضعه الأقدمون من صيغ للتقرير على المتعلمين فجعل يدقق فيها تدقيقاً حرفاً حين يرد عليهم قولهم مثلاً : إن العامل في رفع (زيد) من قولنا (ضرب زيد) هو فعل (ضرب) بأن هذا غير صحيح ←

قلت : (مع شيء غير قليل من التسامح والتجوز) و (إلى حد ما) لأن القول بضعف بعض العلل النحوية قديم متعارف في المشرق حتى جرى به المثل فقيل «أضعف من حجة نحوى» على ما في هذا القول من مبالغة وخطأ في التعميم . وعلماء هذا الشأن أحاطوا بذلك وأشاروا إليه وعلموه ، وصرح الخليل ابن أحمد (- ١٧٥ م) قبل ابن حزم بنحو ثلاثة قرون أنك لا تصل إلى ما تحتاج إليه من النحو حتى تتعلم ما لا تحتاج إليه . فاستضعف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن حزم فليس فيه سابق ، وإنما بالغ ابن حزم حين جعلها «فاسدة جداً» فعمم واشتبط . والحقيقة المادئة هي عند الذين صنفوا هذه العلل فجعلوا منها المقبول ومنها الضعيف ومنها الخيالي (١) . وفرق كبير بين إطلاق ابن حزم ومن قلده كابن مضاء ، ومن تجرد للبحث والاستقراء بأنواعه وصبر فجمع الأمثلة والشواهد بين يديه يمعن فيها ويفلسفها حتى انتهى إلى «أن العرب قد

← والذي رفع (زيد) هو المتكلم وأن القول إن الألفاظ يحدث بعضها ببعضًا باطل عقلاً وشرعًا لا يقول به أحد من العلاء ! (ص ٨٧) » وأفاض في فلسفة هذه البديهة بما لا طائل تجته ، وإلا فهل يغيب على أحد أن المتكلم هو الذي يرفع وينصب على الحقيقة وأن إسناد ذلك إلى العامل الفظي مجاز وتقريب على المتعلمين ، وهذا أسلوب شائع في جميع العلوم لا في النحو فقط . وهذه البديهة ذكرها عرضاً ابن جني ونقلها عنه ابن مضاء نفسه في الصفحة المذكورة ، بل تلك بديهية لكل مزاولي النحو تعلمًا وتعليمًا . وفي الرسالة بعد ، نظرات جزئية في مسائل بعضها سائغ ، لكنه انتهى به الأمر إلى أن ناقض نفسه وإمامه ابن حزم فقال بالعدل الأولى ونفي العدل الثانية والثالثة ، وليس هذا مقام التفصيل في نقد كتابه .

(١) انظر في العلل ص ١٠١ من كتابي «في أصول النحو» .

أرادت من للعلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها»^(١) فالشك في العلل النحوية إذاً ليس من صادرات الأندلس ، بل تعاوره في أسلوب علمي جهابذة مشارقة منذ عهد الخليل ، فليس فيه ما يسمى مذهبًا أندلسياً من قريب ولا بعيد .

أما بعد ، فأنا لا أقول بالإقليمية بالأدب فكيف تخطر لي في العلم وهو الذي لا وطن له ! ؟ وإنما تعاون على إثباته جماهير من كل جنس وبلد ، ولعل المسألة من مسائله بذلك في كشفها جهود كثيرة ضخمة من معلومين ومحظوظين ، بل ما أكثر الجنود المجهولين في العلم ، وإنه ليقع في حدسي أنهم أكثر من المعروفين بما لا يخطر على بال . وهذه الآراء الجزئية التي عرضت لها قامت على ما وصل إلى علمي من آثار ، وليس في الكلمة الأخيرة ، ومني كان في العلم كلمةأخيرة ؟ وهل سكوت المصادر عن كتاب مطول لابن حزم في النحو قاطع على أنه لم يوجد ؟ وهل جهلني أنا بما في خبابا المكتبات في الأندلس والمغرب وحتى المشرق من آثار نحوية يقتضي بأنه ليس هناك مذهب أندلسي في النحو ؟

إن الوصول إلى شيء جديد نرکن إليه موقف على ظهور آثار جديدة ، وما قدمت من أحكام شخصية صحيحة اعتماداً على ما وصل إلى اطلاعي وما أقله ، وكل مخطوط جديد ينشر حافزا على إعادة النظر واستئناف المحاكمة .

فهل لإخواننا المغاربة عامة وغربهم - كما تحققت

(٢) كلمة ابن جني - الخصائص ٢٥٠/١ وما بعدها (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢ بتحقيق الأستاذ محمد علي التجار) .

في رحلتي القصيرة - متحف مجهول ، أن يواصلوا السعي
فرادي وجماعات في الكشف عن مخبأتهم والتعريف بها ؟
وهل لدارسي النحو منهم خاصة أن يعكفوا على نشر النافع
من آثاره فيملؤوا ثغراً في ميادين البحث ما زالت خالية ؟ .
ومن يدري ؟ ! فلعلنا في المستقبل لا نكتفي بالقول «إن
النحو الأندلسي قياسي مع نزعة سمعية» كما هو في المشرق ،
بل نؤكد واثقين بما سيظهر من خصائص وسمات تنتزع من
مخطوطات يكشف عنها أن هناك في النحو «مذهباً أندلسيّاً حقاً»
بكل ما في الكلمة «مذهب» من معانٍ . اه .

خاتمة :

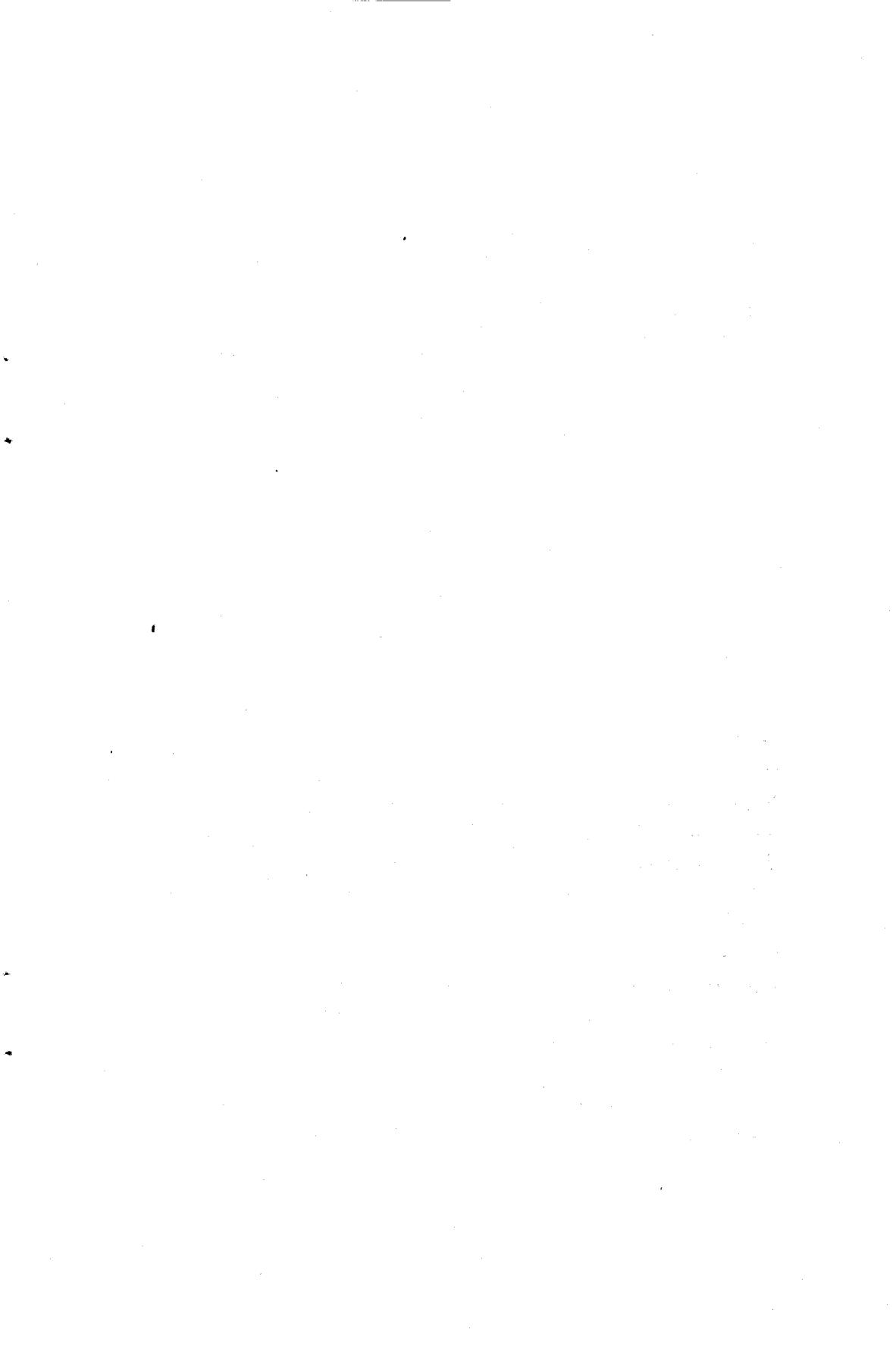
يرى الباحث بعد التقصي أنه قد تضم البلدة الواحدة نحاة من منازع مختلفة ، يطغى عليها أحياناً مذهب أهل البصرة ، وأحياناً مذهب الكوفة ، تبعاً لترعة العالم ذي الأثر فيها . فهذه (حلب) من مدن الشام ضمت عالمين مختلفي الترعة كل الاختلاف في زمن واحد : ابن جني رأس مدرسة القياس الذي كان للمذهب البصري إمامه الأعظم ، وابن خالويه الكوفي المترع صاحب كتاب «ليس في كلام العرب» ، الذي اتبع فيه للسماع نافياً من اللغة ما جوزه (فلسفة) نحاة البصرة ، وبعدهما كان في الشام المعري الذي كان واسع الرواية ؛ سماعيأً إلى أبعد حدود السمع ، يضيق بنحو البصرة الذي كان في أيامه طافحاً بالجدل والقياس والتعليق (١) . وهذه الترعة ظاهرة في كتبه كل الظهور ، وحسبك أن تلم برسالة الملائكة لترى مبلغ عنایته بالرواية والسماع ، أو أن تمعن في (رسالة الغفران) لترى نعمته على البصريين خاصة من حيث

(١) انظر في ذلك بحثاً قياماً للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى نشره في (المهرجان الأنفي لأبي العلاء المعري) من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ص ٣٦٢ - ٣٧٤ .

كانوا أهل القياس (١) .

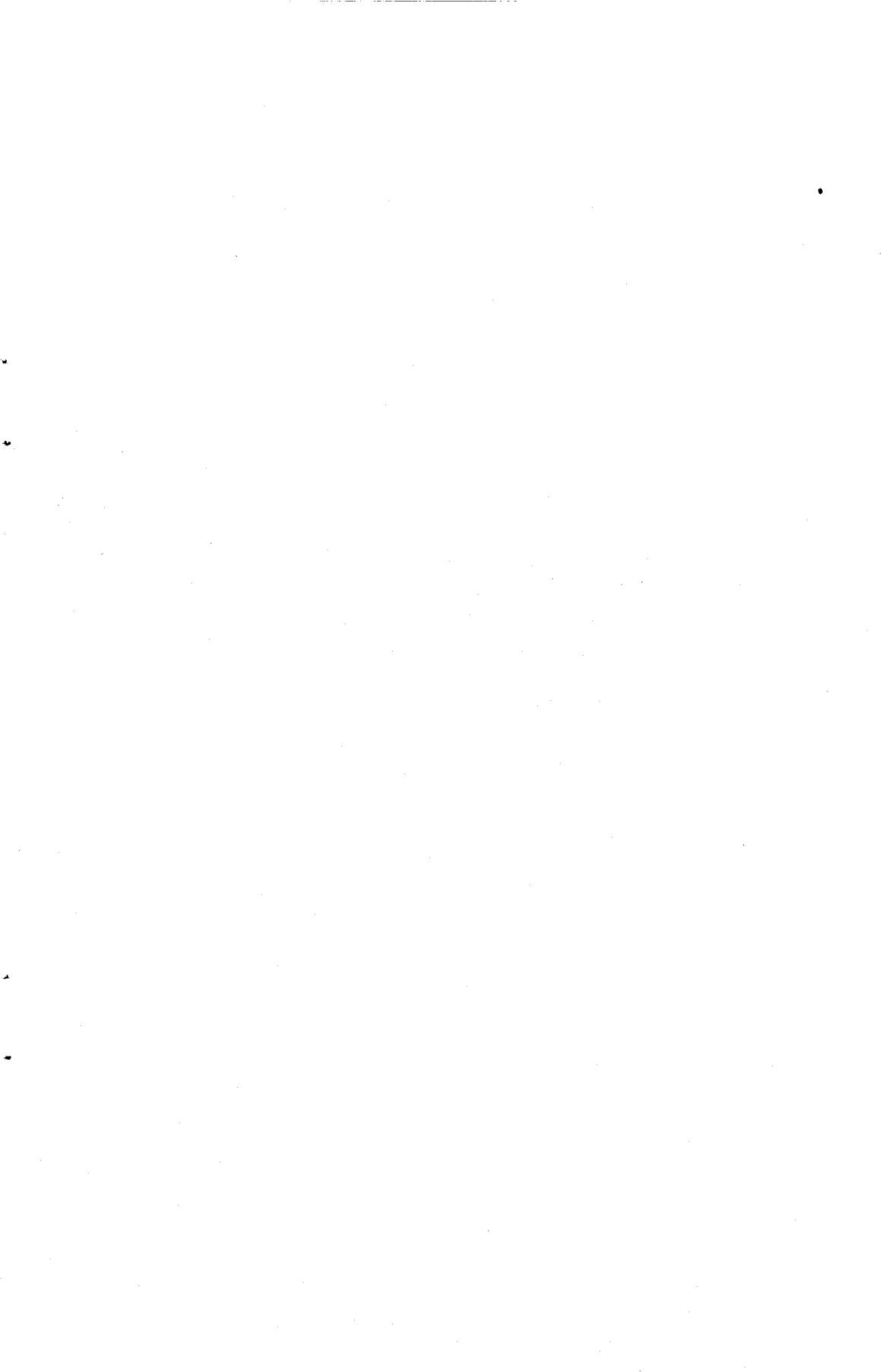
(١) الظاهر أن مذهب الكوفة انتعش في الشام حيناً من الدهر ، وعلة ذلك عندي اعتماده على كثرة الرواية والسماع ، والشاميون «أثريون سلفيون» إلى حد بعيد ، يحترمون السماع عن العرب كثيراً شأنهم في اللغة والنحو كشأنهم في علوم الشريعة ، فيهم أخصب علم القراءات وهو سمع محسن ، ولا تنس أن أكثر أئمة البصرة والكوفة هم قراء أيضاً ، وعندهم أخصب فن الحديث وهو أيضاً سمع محسن وبقي حياً نحيطاً إلى زمن قريب ، عنوا عناية باللغة به وبسماعاته وطبقات رجاله وإحصاء طرقه ، ونبغ فيهم كبار الأئمة فيه ، ولا تزال دار كتبهم الظاهرية بدمشق أغنى مكتبات الدنيا اليوم في فن الحديث ، وكثير من خطوط طابها بخطوط مؤلفيها المحدثين أنفسهم لا يدانها في ذلك مكتبة في العالم . وفيها عدة دور «مدارس» للحديث ولقراءات القرآن . نزعة عرفوا بها ، واستأنس إذا شئت بهذه الجملة قرأتها أخيراً في كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) للباحث الفاضل جواد علي :

«يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث ، وأما التلمود البابلي فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق التفكير وتوسيع في المحاكاة وغنى في المادة ، وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني » ٢٤/١ . ومهما تظن من أثر لحب البلد في هذا الكلام فما ذلك بمانعك الاستئناس به إلى حد ما ، ولو لا عزو في عن التعريم وإطلاق الأحكام ليشددت به ما أذهب إليه من أثرية (سلفية) الشاميين بعد التشكيت من صحة الحكم .



كتب ونصوص

- (١) سيبويه : الكتاب
- (٢) ابن جي : « التصريف الملوكى » و « المنصف شرح التصريف المازنى »
- (٣) الزخري : « المفصل » و شرحه لابن يعيش .
- (٤) ابن الانباري : « لمع الأدلة » و « الإنصاف في مسائل الخلاف »
- (٥) ابن مالك : « الألفية » و شرحها لابن عقيل ، و شواهد الترضيح .
- (٦) ابن هشام : « مغنى الليبب » و « شرح شنور الذهب » .



(١)

«الكتاب» لسيبويه

كان سيبويه تلميذ الخليل الخاص ، استوعب علمه ، وورث ملكته في القياس والابتكار ، ولزم طريقته في التوثيق مما يسمع عن العرب ، وأودع هذا كله «الكتاب» الذي لولاه لصاع علم الخليل في النحو والصرف

ولم يقتصر سيبويه على علم الخليل بل جمع إليه علم كثير من الفحول المشهورين في عصره ، فتلتمند على أبي عمرو بن العلاء وعلى يونس بن حبيب وعلى أبي الخطاب الأخفش ، وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، وإذا لم يسم من ينقل عنه اكتفى بوصفه مثل (حدثني من أثق بحديثه) أو (أنشدناه اعرابي من أفصح الناس) ، أما شواهده فكلها معزوة إلى من يحتاج به من العرب وأحصوا في «الكتاب» ألفاً وخمسين شاهداً معروفاً إلا خمسين منها ، ومع ذلك جرى العلماء على الثقة بها مع عدم عزوفها لاقناعهم بأن سيبويه يتحرى في الأخذ والنقل ، فجعلوا نقله لهذه الشواهد بمنزلة عزوها إلى من يحتاج بلغته ، لأن التحرى والوثيق من عربية من ينقل عنه سمة البصريين عامة ومدرسة الخليل على التخصيص .

ولسيبويه طابعه التميز به وشخصيته التي يحس بها قارئ كتابه ، فقد استوعب ما نقل ودرسه وتمثله ، وناقشه وحكم عليه ، فكثيراً ما تجد في كتابه : قال فلان كذا والقياس كذا ، وقال النحاة كذا والصواب خلافه ، وحسبك أن تجد باباً خاصاً نقد فيه النحاة في بعض ما ذهبوا إليه .

« وذلك قوله : ويح له وتب ، وتبالك وويحا ، فجعلوا التب بمنزلة الريح ، وجعلوا (ويح) بمنزلة التب فوضعوا أكل واحد منهمما في غير الموضع الذي وضعته العرب ... الخ (١) »
وجعل سيبويه عنوان هذا الباب مشعرأً بنقد صنيعهم فقال : « هذا باب استكره النحويون وهو قبيح ، فوضعوا الكلام على غير ما وضعته العرب .» (١).
وأسلوب سيبويه هذا هو الطابع الأصيل للمذهب البصري الذي مر بك الكلام عنه .

وبعد أن عرفت أن سيبويه ينقل كلام المخالفين نقاً موضوعيًّا معلقاً عليه حيناً ، ومكتفيًّا بإثباته حيناً آخر ، وأنه إذا قال : (قال الكوفي) فانما يعني أبا جعفر الرؤاسي ، كما أن (قال) إذا لم يذكر فاعلها إلى جانبها ففاعلها الخليل لكثره النقل عنه .

درج القدماء على استعظام كتاب سيبويه وتشبيههم لدراسته بر Kob البحر ، وأن أتباعه يفخرون به ، وخصوصه يقرؤونه سراً على تلاميذ سيبويه ولا يجاهرون ... وذلك مشعر بأنهم موقنون أن المعرض عنه حارم نفسه من خير كثير لا تسمح نفس

(١) الكتاب ١٦٧ / طبعة بوتاق ١٣١٧

العارف بالزهد به عادة .

في الكتاب شواهد كثيرة من حر الشعر العربي ومن أوثق ما نقل عن العرب من نثر ، وعبارة سيبويه عربية جيدة موجزة جزءة جزالة تلتحقها بالسماع الذي يحتذيه البلغاء .

وعلى الدارس اليوم أن يعرف أن ترتيب الكتاب وتبويبه يختلفان عما ألف في العصور المتأخرة من ترتيب وتبويب لفرق الزمني والبيئي ، فالبيئة التي ألفت لها الكتاب أرفع جداً من حيث الثقافة العربية من البيئات التي ألفت لها الكتب في العصور المتتالية حتى اليوم . وهذا الفارق لا بد من ملاحظته ليحفزنا على الدأب والتؤدة وحسن الاستعداد لاستفادة من آثار الفحول .

في أيدي الناس اليوم الطبعة الأميرية (ببلاط سنة ١٣١٧ هـ) في جزأين جاوزا (٩٠٠) صفحة من القطع الكبير ، على هامشهما تعليقات مفيدة من الشرح المشهور لأبي سعيد السيرافي من رجال المئة الرابعة (- ٣٦٨ هـ) ، وفي حواشيهما شرح الشواهد للأعلم الشتمني الأندلسي من رجال المئة الخامسة (- ٤٧٦) وإليك الموضوعات الهامة كما وردت متسلاة :

في الجزء الأول : الكلمة – فاعل اللازم والم التعدي من الأفعال وأشباهها – أسماء الأفعال – إضمار الفعل – المصادر المنصوبة – الحال – المفعول فيه – الجر والتوازع – عمل الصفات – بعض المتصوبات – المبتدأ وخبر – النكرة والمعرفة – الابتداء –

إن وأخواتها - كم - النداء - الندبة - الترخيص - لا التبرئة - الاستثناء - الضمائر - أي - من - ذا - نواصي المضارع وجوازمه - أسماء الشرط - توكييد الأفعال - إن وأن - (أم) و (أو) .

في الجزء الثاني : ما ينصرف وما لا ينصرف - النسب - التصغير - حروف القسم - نونا التوكيد - إدغام المضعف - المقصور والممدود - تمييز الأعداد - التكسير - أوزان المصادر - صيغ الأفعال ومعاني الزوائد - زنة المصادر ذات الزوائد - أسماء الأماكن - اسم الآلة - ما أفعله - أحكام حلقي العين - الإملالة - هاء السكت مع ألف الوصل - الوقف - هاء الضمير - الترميم - حروف الزوائد - القلب (الإعلال) - وزن أفعاله - التضييف - الإدغام . . . - ما خفف شذوذًا .

هذا ، ومن ألف الدراسة في كتب النحو الحديثة والعصور التي قبلها يجد شيئاً من الصعوبة في البحث عن مطلوبه في كتاب سيبويه لاختلاف تبويبه كما أسلفت ، ويحتاج إلى قليل من الألفة للكتاب حتى يأنس بأسلوبه ، حتى إذا مضى شوطاً في صحابته انقلب صعوبته متعة ولذة إذا كان ذا إمام كاف وشغف بالفن .

وإليك نموذجين اختر تهما لقصرهما ، الأول ما نسميه : (العطف على محل) والثاني لاسم كان واسم ليس إذا كانا ضميري شأن ، وستلاحظ كيف اختلف المصطلح والأداء معًا :

هذا باب ما ثُجِر به على الموضع لا على الاسم الذي قبله

وذلك قوله : (ليس زيد بجبان ولا بخيلا) و (ما زيد بأحريك ولا صاحبك والوجه فيه الجر لأنك ت يريد أن تشرك بين الخبرين ، وليس ينقض إجراؤه عليه المعنى ، فإن يكون آخره على أوله أولى ليكون حاهمما في الباء سواء كحالهما في غير الباء مع قربه منه . وقد حملهم قرب الجوار على أن جروا (هذا جحر ضب خرب) ونحوه ، فكيف ما يصح معناه ؟ . وما جاء من الشعر في الإجراء على الموضع قول عقبية الأستدي :

معاوي إننا بشر فأسجح

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

أديروها بني حرب عليكم

ولا ترموا بها الغرض البعيدا (١)

لأن الباء دخلت على شيء لم تدخل عليه لم يدخل بالمعنى ولم يحتاج إليه ولكن نصبا ، ألا تراهم يقولون : (حسبك هذا) و (بحسبك هذا) فلا يتغير المعنى ، وجرى هذا مجرأه قبل أن تدخل الباء لأن (بحسبك) في موضع ابتداء . ومثل ذلك قول لبيد :

(١) كما رواه سيبويه ، والبيت من مقطوعة مجرورة الروي وبعده :
أكلم أرضنا فجر زتموها فهل من قائم أو من حصيد
واعتذر الأعلم الشتيري عن سيبويه بقوله (يمجوز أن يكون البيت من قصيدة منصوبة
غير هذه المعروفة ، أو يكون الذي أنشأه رده إلى لفته فقبله منه سيبويه منصوبة ، فيكون
الاحتجاج بلغة المشد لا بقول الشاعر إه .

فإن لم تجده من دون عدنان والدأ
ودونَ معدٌ فليتذرعْيك العواذل

والجر الوجه . ولو قلت : (ما زيد على قومنا ولا عندنا)
كان النصب ليس غير ، لأنه لا يجوز حمله على (على) ، ألا
ترى أنك لو قلت (.... ولا على عندنا) لم يكن ، لأن (عندنا)
لا يستعمل إلا ظرفاً ، وإنما أردت أن تخبر أنه ليس عندكم .
وقال : (أخذتنا بالجود وفوقه) لأنه ليس من كلامهم
(وبفوقه) . ومثل (ودون معد) قول الشاعر وهو كعب بن
جعيل :

ألا حي ندماني عميرَ بنَ عامرَ
إذا ما تلاقينا من اليوم أو غدا

وقال العجاج :

كشحًا طوى من بلد مختارا
من يأسة اليائس أو حذارا (١)

وتقول : (ما زيد كعمره ولا شبيهاً به) و (ما عمره وكحاله
ولا مفلحاً) النصب في هذا جيد لأنك إنما تريده (ما هو مثلـ
فلان ، ولا مفلحاً) هذا معنى الكلام . فان أردت أن تقول
(ولا بمنزلة من يشبهه) جررت نحو قوله : (ما أنت كزيره
ولا شبيهٍ به) فانما أردت (ولا كشبيه به) . وإذا قلت (ما أنت

(٢) الكشح : الجنب أو الخصر . يقال لمن أضمر شيئاً طوى كشعه عليه . والبيت في وصف
ثور وحشي أو حمار وحشي خرج من بلد إلى بلد خوفاً من صائد أحس به ، أو يأساً
من مرعى كان فيه .

بزيـد ولا قرـيباً منه) فإـنه ليس هـا هنا معـنى
أن تجـيء بها ، وأـنت إذا ذـكرت الكـاء
(قرـيباً) هـا هنا إن شـئت ظـرفـاً ، وإن لمـ
جاز فيـه الجـر علىـ الـباءـ والنـصبـ علىـ المـوضـعـ

هـذا بـابـ الإـضـمارـ فـيـ لـبسـ وـكـانـ

كـالـإـضـمارـ فـيـ (إنـ) إـذـا قـلتـ : (إـنـهـ منـ يـأـتـنـاـ نـأـتـهـ) (إـنـهـ
أـمـةـ اللهـ ذـاهـبـةـ) . فـمـنـ ذـلـكـ قولـ بـعـضـ العـربـ : (لـيـسـ خـلـقـ
الـلـهـ مـثـلـهـ) فـلـوـلاـ أـنـ فـيـهـ إـضـمارـاـ لـمـ يـجـزـ أـنـ تـذـكـرـ الفـعـلـ وـلـمـ تـعـمـلـهـ
فـيـ اـسـمـ ، وـلـكـنـ فـيـهـ مـنـ إـضـمارـ مـثـلـ مـاـ فـيـ (إـنـهـ) . وـسـوـفـ
يـبـيـنـ حـالـ هـذـاـ إـضـمارـ كـيـفـ هـوـ إـنـ شـاءـ اللـهـ . قـالـ حـمـيدـ
الـأـرـقطـ :

فـأـصـبـحـواـ وـالـنـوـىـ عـالـيـ مـعـرـ سـهـمـ

وـلـيـسـ كـلـ النـوـىـ تـلـقـيـ المـساـكـينـ (١)

فـلـوـ كـانـ (كـلـ) عـلـىـ (لـيـسـ) وـلـاـ إـضـمارـ فـيـهـ لـمـ يـكـنـ إـلـاـ
الـرـفـعـ فـيـ (كـلـ) ، وـلـكـنـهـ اـنـتـصـبـ عـلـىـ (تـلـقـيـ) ، وـلـاـ يـجـوزـ
أـنـ نـحـمـلـ (الـمـساـكـينـ) عـلـىـ (لـيـسـ) وـقـدـ تـقـدـمـتـ فـجـعـلـتـ الـذـيـ
يـعـمـلـ فـيـهـ الـفـعـلـ الـآـخـرـ يـلـيـ الـأـوـلـ وـهـذـاـ لـاـ يـحـسـنـ . لـوـ قـلتـ
(كـانـ زـيـداـ الـحـمـىـ تـأـخـذـ) أـوـ (تـأـخـذـ الـحـمـىـ) لـمـ يـجـزـ وـكـانـ
قـيـحاـ وـمـثـلـ ذـلـكـ فـيـ إـضـمارـ قولـ الـعـجـيـبـ ، سـمـعـنـاهـ مـنـ يـوـثـقـ
بـعـبـيـتـهـ :

(١) قال الشتيري : لما أصبحوا ظهر على مرضهم وهو موضع نزولهم نوى التمر وعلمه
لكثرته ، على أنهم حاجتهم لم يلقوا إلا بعضه . وإذا إشارة إلى كثرة ما قدم لهم منه
وكثرة أكلهم له .

إذا مت كان : الناس صنفان شامت
وآخر من بالذى كنت أصنع

أضمر فيها . وقال بعضهم : (كان أنت خير منه)
كأنه قال : (إنه أنت خير منه) . ومثله « كاد تزيغ قلوب
فريق منهم . » (١) وجاز هذا التفسير لأن معناه (كادت
قلوب فريق منهم تزيغ) كما قلت : (ما كان الطيب إلا
المسك) على إعمال (ما كان الأمر : الطيب إلا المسك) فجاز
هذا إن كان معناه (ما الطيب إلا المسك) ، وقال هشام أخوذى
الرمة :

هي للشفاء لدائي لو ظفرت بها
وليس منها شفاء للداء مبذول

ولا يجوز هذا في (ما) في لغة أهل الحجاز لأنه لا يكون
فيه إضمار . ولا يجوز أن تقول : (ما زيداً عبد الله ضارباً)
و (ما زيداً أنا قاتلاً) لأنه لا يستقيم كما لم يستقم أن تقدم في
(كان) و (ليس) ما يعمل فيه الآخر ؛ فان رفعت الخبر
حسن حمله على اللغة التمييمية كأنك قلت (أما زيداً فأنا ضارب)
كأنك لم تذكر (ما) ، وكأنك قلت (زيداً أنا ضارب) .
وقال مزاحم العقيلي :

وقالوا : تعرفها (٢) المنازل من مني
وما كلَّ من وافى مني أنا عارف

(١) سورة التوبة ٩/١١٨ .

(٢) حذف حرف الجر ، ولالأصل : تعرفها في المنازل .

وقال بعضهم : وما كُلٌّ من وافٍ مِّنَ أَنَا عارف
لزِمُ اللُّغَةِ الْحِجَازِيَّةِ فَرَفِعَ كَأْنَهُ قَالَ (لِيَسْ عَبْدُ اللَّهِ أَنَا عَارِفٌ)
فَأَضْصَرَ الْهَاءَ فِي (عَارِفٌ) وَكَانَ الْوَجْهُ : (عَارِفُهُ) حِيثُ لَمْ يَعْمَلْ
(عَارِفٌ) فِي (كُلٌّ) ، وَكَانَ هَذَا أَحْسَنُ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ
لَأَنَّهُمْ قَدْ يَدْعُونَ هَذِهِ الْهَاءَ فِي كَلَامِهِمْ وَفِي الشِّعْرِ كَثِيرًا ،
وَذَلِكَ لِيَسْ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِهِمْ وَلَا يَكُادُ يَكُونُ فِي شِعْرٍ
وَسِرِّيَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(الكتاب ٣٥:١)

(٢)

ابن جني وكتاباته

— ٣٩٢ —

«عثمان بن جني (بسكنون الياء معرب كني) أبو الفتح النحوي من أخذن أهل الأدب وأعلمهم بال نحو والتصريف ، وعلمه بالتصريف أقوى وأكل من علمه بال نحو . وسيبه أنه كان يقرأ النحو بجامع الموصل ، فمر به أبو علي الفارسي فسأله عن مسألة في التصريف فقصر فيها فقال أبو علي : «زبيت قبل أن تخرصه» فلزمه من يومئذ مدة أربعين سنة ، واعنى بالتصريف ، ولما مات أبو علي تصدر ابن جني مكانه ببغداد ؛ وأخذ عنه الشامي وعبد السلام البصري وأبو الحسن السمعسي .

قال في «دمية القصر» : وليس لأحد من آئمة الأدب في فتح المقلفات وشرح المشكلات ما له (ولا) سيمان في علم الإعراب ، وكان يحضر عند المتنبي ويناظره في شيء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره أńفة وإكباراً لنفسه . وكان المتنبي يقول فيه : «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس .»

صنف «الخصائص» في النحو ، و «سر الصناعة» ، وشرح «تصريف المازني» ، وشرح مستغلق (الخمسة) ، وشرح «المقصور والمدود» ، وشرحين على «ديران المتنبي» ، والمع في النحو (جعه من كلام شيخه الفارسي) ، والمذكر والمؤثر ، ومحاسن العربية ، والمحتب في إعراب الشواذ ، وشرح الفصيح) وغير ذلك .

مولده قبل الثلاثين وثلاثمائة ، ومات لليلتين بقيتا من صفر سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة .

بغية الوعاة ص ٣٢٢ (١)

كتب ابن جني تعد الذروة التي ارتفت إليها بحوث العلماء

- (١) طبع كتابه الكبير (الخصائص) طبعة متقدمة بتحقيق الشيخ محمد علي النجار رحمه الله سنة ١٣٧١ هـ والتصريف الملوكي سنة ١٣٣١ هـ و (سر الصناعة) سنة ١٣٧٤ هـ و (المبهج) سنة ١٣٤٢ هـ . بالمتصفح سنة ١٣٧٣ هـ م ١٩٥٤ . وانظر عنه ص (٩١ - ٩٩ ، ١٣٦) في كتابنا «في أصول النحو» الطبعة الثالثة بمطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٦٤ .

في علوم اللغة العربية وفلسفتها ، «لقد كان أعلى علماء العربية كعباً في جميع عصورها ، وأغوصهم عامة على أسرار العربية وأنجحهم في الاهتداء إلى النظريات العامة فيها وكتابه الكبير (الخصائص) لا يزال مخط إعجاب علماء العرب والغرب على السواء ، وحسبك أن ابن جي هو مبتدع نظرية الاستدلال الكبير (١) ومؤسس علم فقه اللغة على ما يحسن أن يفهم عليه هذا العلم اليوم ، أما التصريف فهو إمامه دون منازع ، وقليما تقرأ كتاباً فيه ولا يكون ابن جي مرتع كثير من مسائله» (٢) لن نتعرض لمزايا كتابه العظيم «الخصائص» لأنه أدخل في فقه اللغة ، وإنما عنى منهاجنا بالناحية الصرفية عند ابن جي ونص على كتابيه (التصريف الملوكي) و (المنصف) .

١ - التصريف الملوكي :

هذا كتاب موجز جداً في علم الصرف ، جيد العبارة ، مكثف المعاني ، وضع للشادين في هذا العلم ، ومباحثه تدور حول المطالب الآتية :

معنى التصريف - الزيادة في بنية الكلمة (حروف الزيادة - معانيها - مواضعها - أدلةها) - الإبدال - الحذف - الإعلال - الإدغام الأصغر والإدغام الأكبر .

(١) «وهو البحث الذي لا يزال يوقي ثمره إلى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هياتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا» - آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع) ٣٢٠/١ (الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ م.) .

(٢) من تعريفنا له في كتابنا (في أصول النحو) ص ٩١ .

ومع إيجازه نجده يتعرض أحياناً لآراء العلماء في المسألة التي يعرضها فيشعرنا بموضع الخلاف إشعاراً خفيفاً ، ويلاحظ أن كتابه بين يدي قارئه مبتدئه فيوسع عبارته حين يحاول تبسيط الميزان في الصرف وتطبيقه على الكلمات المختلفة ، وهو ذو عنية بالشواهد حتى للمبتدئين ، أسلوب درج عليه القدامى من علماء العربية إشعاراً للمتعلم أن العربية ب Shawahedha وأن القواعد خادمة لل Shawahed ، وإنما وضعت إعانة للمتعلم حتى يلتحق بأهل العربية بملكته التي تنمو بدراسة الشواهد خاصة وبتمثيلها .

وعبارته صافية خالية من كل حشو ، على عكس ما يكثر في كتب المتأخرين . وحسبك أن تعلم أن كتابه وقد طبع سنة ١٣٣١ ١٩١٣ م كان في نحو ٩٠ صفحة من القطع الصغير ، نصفها تعاليق مصحح الطبع ، وإليك نموذج من منه .

التصريف الملوكي (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
هذه جمل من أصول التصريف يقرب تأملها ، وتقل الكلفة
على ملتمسفائدة منها ، قليلة الألفاظ ، كثيرة المعاني .

في الفول على معنى قوله (التصريف)

معنى قوله (التصريف) هو أن تأتي إلى الحروف الأصول
- وسنوضح قوله : الأصول - فتتصرف فيها بزيادة حرف أو
تحريف بضرب من ضروب التغيير ، فذلك هو التصرف فيها
والتصريف لها ، نحو قوله (ضرب) فهذا مثال الماضي ؛
فإن أردت المضارع قلت : (يضرب) ، أو اسم الفاعل قلت :
(ضارب) ، أو المفعول قلت (مضروب) ، أو المصدر قلت :
(ضرباً) ، أو فعل مالم يسم فاعله قلت : (ضرِّب) ، وإن أردت
أن الفعل كان أكثر من واحد على وجه المقابلة قلت
(ضارب) ، فإن أردت أنه استدعاي الضرب قلت :

(١) ص ٢ - ٧ من الطبعة الأولى بطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٣٢١ هـ . وقد أتبنا
فاتحة الكتاب البليفة الموجزة مع شرحه معنى التصريف وبعض كلامه على حروف الزيادة
وتمثيله لزيادة الألف والواو والياء ص ٧ .

(استضرب) ، فإن أردت أنه كثُر الضرب وكسره قلت :
(ضَرَبَ) ، فإن أردت أنه كان فيه الضرب في نفسه مع
اختلاج وحركة قلت : (اضطرب) ؛ وعلى هذا عامة التصرف
في هذا النحو من كلام العرب . فمعنى التصريف هو ما أريناك
من اللعب بالحروف الأصول لما يراد فيها من المعاني المفادة
منها وغير ذلك .

فإذ قد ثبت ما قدمناه فليعلم أن التصريف ينقسم إلى خمسة
أضرب : زيادة - وبدل - وحذف - وتغيير حركة أو سكون -
وإدغام .

القول على حروف الزيادة

وهي عشرة أحرف : الألف والياء والواو والهمزة والميم
والباء والنون والهاء والسين واللام ، ويعجمعها قوله (اليوم
تنساه) ويقال أيضاً : (سألتمونيها) . ويعحكي أن أبا العباس
سأله عن حروف الزيادة فأنشده أبو عثمان :
هويت السمان فشيني وما كنت قدماً هويت السمانا
فقال أبو العباس : «الجواب» فقال : «قد أجبتك دفتين»
يعني قوله : هويت السمان .

عرفنا : الأصل والزائد

الأصل عبارة - عند أهل هذه الصناعة - عن الحروف التي
تلزم الكلمة في كل موضع من تصرفها ... الخ .

(١) أبو العباس هو المبرد ، وأبو عثمان هو المازني شيخ المبرد .

... واعلم أن لكل حرف من هذه الحروف موضعًا تكرر فيه زيادته ، وموضعًا تقل فيه ، وربما احتضن الحرف بالموضع لا يوجد زائدة إلا فيه . فاعرف تلك الأماكن بما أذكره لك ، ولتكن الحكم على الأكثر لا على الأقل .

فأما الألف والياء والواو فالحكم عليهن أنهن متى كانت واحدة منهن مع ثلاثة أحرف أصول فصاعداً – ولم يكن هناك تكرير – فلا تكون إلا زائدة ، عرفت الاشتقاق أو لم تعرفه ؟ فإن عرفته كان على ما ذكرنا لا محالة ، وإن لم تعرفه حملت ما جهل من أمره على ما علم .

من ذلك : « كوثر » الواو فيه زائدة لأن معك ثلاثة أحرف أصول لا يشك فيها وهي : الكاف والتاء والراء ، فالواو زائدة ؟ هذا طريق القياس .

فاما طريق الاشتقاق فكذلك أيضاً ، ألا تراه من معنى الكثرة ، يقال : (رجل كوثر) إذا كان كثير العطاء ، قال الشاعر :

وأنت كثير يابن مروان طيب
وكان أبوك ابن العقائل كوثرا^(١)

وكذلك الياء في (كثير) ، والألف في (كاثر) ، الحكم فيها ثلاثتها واحد ، قال الأعشى :

(١) نسب البيت للكمي . عقيلة كل شيء خياره ، العقائل : كرام النساء .

ولست بالأكثر منهم حصى
 وإنما العزة للكثاثر

٢- المصنف (شرع كتاب التصريف) .

كتاب التصريف للمازني مشهور متداول منذ المائة الثالثة للهجرة ، تواصى العلماء به وأوصوا تلاميذهم بقراءته وإقرائه ، وتباهى هؤلاء بسندتهم إلى أساتيذهم بقراءة هذا الكتاب لما كان له من شأن في هذا الفن . ومؤلفنا ابن جني قرأه على شيخه أبي علي الفارسي وهذا قرأه على شيخه السري السراج ، وهذا قرأه على المبرد ، وهذا قرأه على شيخه المازني مؤلف الكتاب (١) .

ولشأن هذا الكتاب وإقبال الناس عليه عن ابن جني بشرحه عناية بالغة ، ويلفت نظرنا من مقدمته لهذا الشرح أمور هامة نص عليها في مقدمته التي ستقرأ فقرأا منها بعد هذا التعريف ، من ذلك .

- ١ - أنه شرح وضع للذين أحکموا أصول هذا الفن ، يعني أنه لعلماء الصرف لا للمبتدئين .
- ٢ - وأن كتاب المازني هذا من أرقن كتب الصرف وأعرقها في الإيجاز والاختصار ، فعلى قارئه تجنب العجلة في دراسته .
- ٣ - وأن ابن جني قصد في الشرح إلى غامض الكتاب ومشكله

(١) أدرج سند ابن جني إلى مؤلف الكتاب آخر المقدمة ٦/١ .

وعوبيصه وغريبه ليكون شرحه المرجع اللوافي في مشاكل
الصرف .

٤ - وأن من اللغة ما لا يؤخذ إلا بالسماع ، وأن هناك فروقاً
بين اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق – وأن بعض
أهل اللغة لهم تخليل فيما سببه القياس .

وطريقته أن يعرض فقرة فقرة من كتاب المازني فيبسط
مسائلها ويوضحها ويمثل لها حتى إذا اطمأن إلى كفاية الشرح
انتقل إلى فقرة تالية ، وعادته أن يبدأ الفقرة بقوله : (قال
أبو عثمان) فإذا انتهت بدأ شرحه لها بقوله (قال أبو الفتح)
فيجعلنا دائماً نقف على عبارة المتن وعبارة الشرح كلّ على حدة .
هذا الشرح يتفاوت سعة على وفق المسائل المعروضة في الفقرة ،
فتارة يطول حتى يكون أضعاف المتن وتارة يقصر حتى يساويه ،
وحينما يقل عنه ... على مقدار ما يرى ابن جني الحاجة داعية إليه .
والشرح مبسوط كثير الاعتماد على الشواهد والأمثلة .

وفي مقدمة الشرح نلمس إكبار ابن جني للمازني ولعلمه
إكباراً دالاً على خلقه العلمي ، وهو مع إكباره له وللعلماء
القدامى عامة لا يترهم عن الخطأ .

ولا ينسى أن يحملنا معه على إكبارهم ويوصي بالخطة التي
على قارئه كتب العلماء أن يلتزمها لزاءهم فيشعرنا بنبالته
وسمو أخلاقه وينص على وجوب التجاوز عما أخطئوا فيه ،
وأن يعزوا إليهم ما استفاده منهم ويسلم لهم بما فضلهم الله
ويعرف بإحسانهم وتطوّلهم عليه « فإن فعل ذلك فعل محجة

أهل العلم والأدب وقف ، وإن أبى إلا كفران النعمة فعن
المروءة والإنسانية صدف . »

* * *

وهذه أبواب الكتاب : الأسماء والأفعال – الزيادة – ما قبس من الصحيح – الياء والواو – مالحقته الزوائد من الفعل الثلاثي المعتل – باب ما جاء من ذلك في الأسماء – ما تقلب فيه الواو ياء – تكسير الأسماء المعتلة – ما لا مه همزة – الواو والياء اللتان هما لامان – ما تقلب فيه الياء واواً – التضعيف في بنات الواو – التضعيف في بنات الياء – ما قيس من المعتل ولم يجيء مثاله الا من الصحيح – ما تقلب فيه تاء افتتعل عن أصلها .

وغنى عن البيان إن إسحاب ابن جني في مسائل الصرف هنا جعلته يفيض في مسائل الخلاف وأقوال العلماء ، ويكثر من الشواهد والتعليق عليها فالكتاب بسط للمنترين المتمكنين لا كالكتاب الأول الذي وضع للذين هم في أول الطريق .

وقد طبع هذا الكتاب المسهب طبعة جيدة سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م في جزأين من القطع الوسط زادت صفحاتهما على (٩٠٠) صفحة .

وإليك فقرأً من مقدمته وفيها بسط خطته في الشرح ثم بابين صغيرين من أبواب الكتاب :

المنصف

شرح ابن جني لكتاب (التصريف) المازني

من المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآلته أجمعين
الطيبين الطاهرين قال ابو الفتح عثمان بن جني رحمه الله :

هذا كتاب أشرح فيه كتاب ابى عثمان بكر بن محمد بن
بقية المازني رحمه الله في التصريف ، بتمكين أصوله ، وتهذيب
أصوله ، ولا أدع فيه بحول الله وقوته غامضاً إلا شرحته ،
ولا مشكلاً إلا أوضحته ولا كثيراً من الأشباه والنظائر إلا
أوردته ، ليكون هذا الكتاب قائماً بنفسه ، ومتقدماً في جنسه ؛
فإذا أتيت على آخره أفردت فيه باباً لتفسير ما فيه من اللغة
العربية ، فإذا فرغت من ذلك الباب أوردت فصلاً من المسائل
المشكلة العويصة ، التي تشحد الأفكار وتروض الخواطر .

وليس ينبغي أن يتخاطي إلى النظر في هذه المسائل من لم
يحكم الأصول قبلها ، فإنه إن هجوم عليها غير ناظر فيما
قبلها من أصول التصريف الموطئة للفروع لم يحظ منها بكثير

طائل ، وصعبت عليه أيمًا صعوبة ، وكان حكمه في ذلك حكم من أراد الصعود إلى قمة جبل سامق في غير ما سبيل ، أو كجذع مفازة لا يهتدى لها بلا دليل .

وهذا القبيل من العلم أعني التصريف يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة ، وبهم إليه أشد فاقة ، لأنه ميزان العربية ، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلية عليها ، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاد إلا به ، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس ، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف ... الخ .

ولما كان هذا الكتاب الذي قد شرعت في تفسيره وبسطه من أنفس كتب التصريف ، وأسدّها وأرصنها ، عريقاً في الإيجاز والاختصار ، عارياً من الحشو والإكثار ، متخلاصاً من كرازة ألفاظ المتقدمين ، مرتفعاً عن تخليط كثير من المتأخرین ، قليل الألفاظ ، كثير المعاني ، عُنيتُ بتفسير مشكله ، وكشف غامضه ، والزيادة في شرحه ، محتسباً ذلك في جنب ثواب الله ، ومزكيأً به ما وبه لي من العلم .

وحقيق على من نظر في كتاب قد عني به واضعه ، وانصرف إلى الاهتمام به مصنفه ، فحظي منه بأقصى ما طلب ، ووصل إلى غايته من كثب ، أن يحمد الله على ما وبه له من فهمه ، وأن يسلم لصاحبها ما وفرره الله عليه من حفظه ، وأن يعتري فيما يحكيه عنه إليه ؛ فإن فعل ذلك فعل محجة أهل العلم والأدب وقف ، وإن أبى إلا كفران النعمة عن

المروءة والإنسانية صدف .

وأنا أسوق هذا الكتاب شيئاً فشيئاً ، وأتبع كل فصل مما ورثته
ورأيته ما يكون مقنعاً في معناه ، ومعنىأ عما سواه ؛ فما كان
فيما أورده من سداد وصواب فبتوافق الله وإرشاده ، وإن
وقع سهو أو تقصير فما لا يعرى منه الخذاق المتقدمون ،
ولا يستنكفه العلماء المبرزون .

والله أستهدي ، وإياك أسترشد ، وعليه أتوكل ، وهو
حسيبي وكفى .

زيادة الألف والسين والتاء، أول الفعل (١)

قال أبو عثمان: وتلحق السين أولاً والتاء ثانية، وتكون السين
ساكنة فتلزمها ألف الوصل ، ويكون « الفعل على (استفعل) ،
ولا تلحق السين أولاً إلا في (است فعل) ولا التاء ثانية وقبلها
زائد إلا في هذا .»

قال أبو الفتح :

اعلم أن (است فعلت) يجيء على ضربين : متعد وغير متعد ،
فالمتعد نحو : استحسنـت الشيء واستـبـحـته ، وغير المتعد
نحو : استـقـدـمـتـ وـاستـأـخـرـتـ . ويـكونـ (ـفـعـلـ)ـ مـنـهـمـاـ مـتـعـدـيـاـ وـغـيرـ
متـعـدـ ، فالـمـتـعـدـ نـحـوـ (ـعـلـمـ وـاسـتـعـلـمـ)ـ وـ (ـعـصـمـ وـاسـتـعـصـمـ)ـ ،
وـغـيرـ الـمـتـعـدـ نـحـوـ : (ـحـسـنـ وـاسـتـحـسـنـ)ـ ، وـ (ـفـتـحـ وـاسـتـفـتـحـ)ـ .

(١) ٧٧/١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ببصر .

ويقع (است فعل) في الكلام لمعان :

- ١ - منها الطلب نحو (استعتبرته) أي طلت إليه العتبى ، و (استعفيته) أي طلت منه الإعفاء .
- ٢ - ويكون (است فعلت) للشيء تصييه على هيئة ما نحو : (استعظمه) أي أصبته عظيماً ، و (استكرمه) أي أصبته كريماً .
- ٣ - وقد تأتي (است فعلت) بمعنى (فعلت) منها نحو : (مرّ واستمرّ) و (قرّ واستقرّ) .
- ٤ - وقد تأتي للتنقل من حال إلى حال نحو : (استنوق الجمل واستنيست للشاة) .

وقوله : « ولا تلحق السين أولاً إلا في (است فعل) ولا التاء ثانية وقبلها زائد إلا في هذا » قد حصر به أيضاً قطعة من الأمثلة كنحو ما فعل في المثال والذي قبله .

قال أبو عثمان :

هذا باب ما قيس من المعتل ولم يجيء مثاله إلا من الصحيح (١)

إنما قسناه على الصحيح لأن المعتل للعرب في إعلاله مذاهب قد أحطنا بها وبمذهبهم فيها ، فاذا قيل لك : « ابن كذا » فانظر ما يلزم الياء والواو في مواضعهما ، فلا يخرج ذلك من أن يكون له نظير من الياء والواو قد لزمه من كلام العرب :

(١) ٢٤٢/٢

إما سكون ، وإما إتمام ، وإما قلب وتغيير ، فلم تعمدْ أن صنعت باللواوات والياءات ما صنعوا . وسأفسر ذلك شيئاً فشيئاً إن شاء الله .

قال أبو الفتح :

يقول لك : إنما تقيس ما لم يأت على ما أتى من كلام العرب ، والغرض في صناعة الإعراب والتصريف إنما هو أن يقاس ما لم يجيء على ما جاء ؛ فقد وجب من هذا أن يتبع ما عملوه ولا يعدل عنه ، لأنه هو المعنى المقصود ، والسبب الذي له وضع هذا العلم واخترع .

قال أبو عثمان :

«إذا قيل لك كيف تصوغ مثل (اغدوون) من (رميت)؟ قلت : (ارمومي) ، فكررت العين ثم قلبت الباء ألفاً لأنها لام الفعل وقبلها فتحة ، وأصلها الحركة فقلبتها كما قلبتها في (رمي) وعلتها كعلتها ، فإذا أضفت الفعل إلى نفسك أو إلى مخاطب قلت (ارموميت) فلم تقلب الياء ألفاً لأن أصلها السكون كما فعلت في (رميت) حيث كان أصلها السكون .

قال أبو الفتح :

قد أفردنا من قوله هذا أنه لم يأت في كلامهم شيء على (افعوعل) من المعتل لأنه قد قال في أول الباب : «إنه لم يجيء مثاله إلا من الصحيح» فهذه فائدة ، وباقى الفصل

مفهوم إلا أنهم قد قالوا : (احمومي وادلولى ، واقلولى ،
واحلولى ، وانطوطى) وكله معتل اللام وهو (افعوعل) .

قال أبو عثمان :

وتقول فيها من (غزوت) : (اغزو زيت) فتبديل الواو التي
هي لام : ياء ، كما فعلت ذلك في (أغزيت وغازيت) لأنها
صارت رابعة . وقد كتبنا علة هذا فتركتنا تفسيره لذلك .

قال أبو الفتح :

العلة في ذلك انكسار ما قبل اللام من المضارع نحو قوله :
(يغزو زي) فهذا هو الذي أشار إليه .

قال أبو عثمان :

وتقول فيها من (بعث) : (ابيئع) فتقلب الواو ياء لأنها
ساكنة وبعدها ياء متحركة . ومن (قلت) : (اق قول) تكرر
العين وهي واو ، وتعلل واو (افعوعل) للزائدة بينهما وهي
ساكنة ، فتدغمها في الواو التي بعدها .

قال أبو الفتح :

يقول : أصلها (ابيونيع) ، فالباءان هما العينان تكتنفان
واو (افعوعل) فوجب قلبها ياء لما ذكر .

(٣)

الزمخشري وكتابه (المفصل)

.٤٩٧ - ٥٣٣

« محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم ، جار الله . كان واسع العلم كثير الفضل غاية في الذكاء وجودة القرىحة مفتيناً في كل علم ، معزلياً قوياً في مذهب مجاهراً به ، حنفياً .

ولد في رجب سنة سبع وتسعين وأربعين . وورد ببغداد غير مرة وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري وأبي مصر الأصبهاني ، وسمع من أبي سعد الشفائي وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي وجماعة . وجاور بمكة وتلقب جار الله وفخر خوارزم أيضاً . وكتب إليه الحافظ السلفي يستجيزه ، وأصابه خراج في رجله فقطعها وصنع عوضها رجلاً من خشب وكان إذا مشي ألقى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج .

وله من التصانيف :

الكاف الشاف في التفسير ، والفاتح في غريب الحديث ، والمفصل في النحو ، والمقامات ، والمستقنى في الأمثال ، وربيع الأبرار ، وأطواق الذهب ، وصميم العربية ، وشرح أبيات (الكتاب) ، والأنموذج في النحو ، والرأي في الفرائض ، وشرح بعض مشكلات المفصل ، والكلم التواين ، والقططاس في المعروض ، والأحادي التحوية . . . وغير ذلك .

مات يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسين . وله في كتابه الكاف الشاف :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي المدى فاللزم قراءته فاجعل كالداء والكاف الشاف كالشافي

بغية الوعاة ص ٣٨٨

«المفصل» وشرحه لابن يعيش

خلاف الزمخشري كتبًا وافية في فنون عدة ، فله في اللغة المعجم المتقن المشهور «أساس البلاغة» عني فيه عنابة خاصة بالمجاز وإنفرد بتقديم معاني المفردات في جمل مسجوعة شارحة

تعلم اللدارس المعنى والاستعمال معاً ، وله في غريب الحديث المعجم المعروف «الفائق» وكلاهما طبع غير مرة . وتفسيره المعروف : (الكشف) أشهر من نار على علم مطبوع متداول مخدوم بالشرح والتعليق ولا تخفي على مطالعه عنایته بالمجاز وأساليب التعبير والانتباه إلى دقائقها والتنبية على أسرارها . وله في النحو تأليف طبع منها (الأنموذج) وهو كتاب مختصر .

أما «المفصل» فقد أراد فيه جمع ما استطاع من قواعد وضوابط ، وأوجز عباراته إيجازاً شديداً ، والظاهر أنه وضعه لطبقة متقدمة من الطلاب حظيت بقدر واف من الثقافة العامة حينئذ ، وقد حدثنا في مقدمته بالحافر الذي حفظه على تأليفه فقال بأسلوبه المسجع المعروف ، ناعياً على الشعوبين صدتهم الناس عن مخاسن العربية :

«... الله أَحْمَدَ عَلَى أَنْ جَعَلَنِي مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرْبِ ، وَجَبَلَنِي عَلَى الغضب لِلْعَرْبِ وَالْعَصْبَيَّةِ ، وَأَبَى لِي أَنْ أَنْفَرِدَ عَنْ صَمِيمِ أَنْصَارِهِمْ وَأَمْتَازِهِمْ ، وَأَنْضَوَنِي إِلَى لَفِيفِ الشَّعْوَيَّةِ وَأَنْحَازِهِ . وَعَصَمَنِي مِنْ مَذَهَبِهِمُ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمْ إِلَّا الرُّشْقَ بِالسَّنَةِ الْلَّاعِنِينَ وَالْمَشْقَ (١) بِأَسْنَةِ الطَّاغِعِينَ .

ولى أفضل السابقين والمصلين ، أوجه أفضل صلوات المصلين ، محمد المحفوف منبني عدنان بجماجها وأرحائها(٢)

(١) سرعة الطعن .

(٢) الجاجم قبائل تجمع البطون . والأرحاء : القبائل المستقلة بنفسها .

النازل من قريش في مسيرة بطحائها ، المبعوث إلى الأسود والأحمر ، بالكتاب العربي المنور ، ولا له الطيبين أدعوا الله بالرضاوان لهم وأدعوه على أهل الشفاق لهم والعدوان .

ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخضروا ما رفع الله من منارها – حيث لم يجعل خيرة رسله وخيره كتبه ، في عجم خلقه ولكن في عربه – لا يبعدون عن الشعوبية مناسبة للحق الأبلج ، وزيغاً عن سواء المنهج .

والذي لا يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها ، وعلمي تفسيرها وأخبارها ، إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع ، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب والتفسير ، مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحوين البصريين والковفيين ، والاستظهار في مأخذ النصوص بأقاويلهم ، والتشبث بأهداف فسراهم وتآوילهم . وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم ، وتدريسهم ومناظرتهم ، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم ، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم ؛ فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا ، غير متفكرين منها أينما وجوهوا ، كل عليها حيث سيروا . ثم إنهم في تصاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلتها ، ويدهبون عن توقيرها

وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزقون أديمها
 ويمضغون لحمها ، فهم في ذلك على المثل السائر : (الشعير
 يؤكل ويذم) ، ويدعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا في شق (٢)
 منها . فإن صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأساً والإعراب ،
 ولا يقطفون بيننا وبينهم الأسباب ، فيطمسوا من تفسير
 القرآن آثارهما ، وينفضوا من أصول الفقه غبارهما ، ولا
 يتكلموا في الاستثناء فإنه نحو ، وفي الفرق بين المعرف والمنكر
 فإنه نحو ، وفي التعريفين تعريف الجنس وتعريف العهد فإنه
 نحو ، وفي الحروف كالواو والفاء وثم ولام الملك و (من)
 للتبعيض ونظائرها ، وفي الحذف والإضمار ، وفي أبواب
 الاختصار والتكرار ، وفي التطليق بالمصدر واسم الفاعل ،
 وفي الفرق بين (إن) و (أن) ، و (إذا) و (متى) و (كلما)
 وأشباهها مما يطول ذكرها فإن ذلك كله من النحو ؛ وهلا
 سفهوا رأي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله فيما أودع
 كتاب الأيمان ، وما لهم لم يتراطروا في مجالس التدريس وحلق
 المناظرة ثم نظروا : هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة ؟ وهل أصبحت
 الخاصة بال العامة مشبهة ؟ وهل انقلبوا هؤلاء للساخررين ، وضحكمة
 للناظرين ؟ ... فإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا (٢)
 وآثاره الحسنة عديد الحصى . ومن لم يتلق الله في تنزيله ،
 فاجترأ على تعاطي تأويله وهو غير معرب ركب عمياً وخطب
 خطب عشواء ، وقال ما هو تقول وافتراء ، وكلام الله منه براء .

(١) الشق هنا : الناحية .

(٢) كلما كسر من المصاص شيء انتفع بالباقي منه منفعة .

وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، الكافل بإبراز محسنه ، الموكِل بإثارة معادنه ؛ فالصاد عنه كالسادَ لطرق الخير كيلاً تسلك ، والمريد بموارده أن تعاف وترك .

ولقد ندبني ما بال المسلمين من الأرب ، إلى معرفة كلام العرب ، وما بي من الشفقة والخدب ، على أشياعِي من حفدة الأدب ، لإنشاء كتاب في الإعراب ، محظوظ بكافة الأبواب ، مرتب ترتيباً يبلغ بهم... الأمد البعيد بأقرب السعي ، ويملاً سجاهُم بأهون السقى ، فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب «المفصل في صنعة الإعراب» مقسوماً أربعة أقسام : القسم الأول في الأسماء ، القسم الثاني في الأفعال ، القسم الثالث في الحروف ، القسم الرابع في المشترك ، وفصلت كل صنف منها تفصيلاً حتى رجع كل شيء في نصابه ، واستقر في مركزه ، ولم أدّخر فيما جمعت فيه من الفوائد المتکاثرة ، مع الإيجاز غير المخل ، والتلخيص غير الممل ، مناصحة لقتبسيه ، أرجو أن أجتني منه ثرثي دعاء يستجاب . وثناء يستطاب . والله عز سلطانه ولِي المعونة على كل خير والتأييد ، والمالي بال توفيق فيه والتسديد . »

والالمقدمة كما ترى - إلى ناحيتها التأريخية لأناس شأنهم الغضّ من العربية - صريحة بإراده تحمل العبارة أكثر ما يمكن من أحكام على طريق الإيجاز والتکيف ، ومن هنا انبرى له كثيرون بالشرح والتوضيح ، ومن جملتهم موقف الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي المتوفى سنة (٦٤٣ هـ) وهو أشهر الشرائح على الإطلاق ، وقد طبع شرحه بالمطبعة

الميرية بمصر في عشرة أجزاء تبقي على (١٥٠٠) صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير . وهذا الشرح مطول جداً بما جمع من آراء وما استقصى من شواهد ونقول ، من أوسع المجموعات النحوية إن لم يكن أوسعها على الإطلاق .

ويحدثنا ابن يعيش عن موجبات شرحه للمفصل وما رأى فيه للطلاب من تغافل ومشقة ذاكرأ ما للكتاب من مخاسن صراحة ، وما عليه من مأخذ إشارة وتلميحاً فيقول :

« . . . وبعد فلما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العالمة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري رحمه الله جيلاً قدره نابهاً ذكره ، قد جمعتْ أصولَ هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب : منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتجاذبه معانٍ فهو مجمل ، ومنها ما هو باد للأفهام إلا أنه خالٍ من الدليل مهملاً ؛ استخرت الله تعالى في إملاء كتاب أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجمله ، وأتبع كل حكم منه حججه وعلمه ، ولا أدعني أنه رحمه الله أخل بذلك تقسيراً عما أتيت به في هذا الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرآ على بلاغه الإيجاز ، كان قادرآ على بلاغة الإطناب . » (١)

ولا يتحمل المقام هنا الاستشهاد بنص على مسألة كاملة كأحكام (لا) التي لنفي الجنس ، فلنختبرئ بحكم واحد

(١) ص ٢

منها وهو بناء اسمها على الفتح إذا لم يكن مضافاً ولا شبيهاً
بالمضاف ، لنلم بایجاز صاحب المفصل وإسهاب الشارح :

قال صاحب الكتاب (١) :

«إِذَا كَانَ (اَسْمَ لَا النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ) مُفْرَداً فَهُوَ مُفْتَوِحٌ وَخَبْرُهُ
مَرْفُوعٌ كَقُولَكَ : لَا رَجُلَ أَفْضَلُ مِنْكَ ، وَلَا أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْكَ .
وَيَقُولُ الْمُسْتَفْتَحُ : وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ .»

قال الشارح :

«إِذَا قُلْتَ : (لَا رَجُلَ أَفْضَلُ مِنْكَ ، وَلَا أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْكَ ،
لَا إِلَهَ غَيْرُكَ) كَانَ مُبْنِيًّا مُفْتَوِحًا لِوُجُودِ دُلْعَةِ الْبَنَاءِ وَهُوَ تَضْمِنْهُ
وَمَعْنَى الْحُرْفِ الَّذِي هُوَ (مِنْ) عَلَى مَا تَقْدِيمُ ، إِذَا مَرَادُ الْعُومَ
وَاسْتَغْرَاقُ الْجِنْسِ وَلَمْ يُوجَدْ مَا يَمْنَعَ مِنَ الْبَنَاءِ . فَأَمَّا المُضَافُ
وَالْمَشَابِهُ لَهُ نَحْوُ (لَا غَلامَ رَجُلٌ عَنْدَكَ ، وَلَا خَيْرٌ مِنْ زِيدٍ
فِي الدَّارِ) فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتِ الْعُلَةُ الْمُقْتَضِيَّةُ لِلْبَنَاءِ مُوْجَدَةً وَهِيَ
تَضْمِنْهُ مَعْنَى (مِنْ) فَإِنَّهُ وَجَدَ مَانِعًا مِنَ الْبَنَاءِ وَهُوَ الإِضَافَةُ وَطُولُ
الْاَسْمِ ، فَعَدَمُ الْبَنَاءِ فِيهِمَا لَمْ يَكُنْ لِعَدَمِ تَمْكِينِهِ ، بَلْ لِوُجُودِ
مَانِعٍ مِنْهُ .

(١) الجزء الثاني ص ١٠١ .

قال صاحب الكتاب :

« وأما قوله : (لا نسبَ اليوم ولا خلةً) فعلٌ إضمارٌ فعل ، كأنه قال : (ولا أرى خلة) كما قال الخليل في قوله : (ألا رجلاً جزاه الله خيراً). كأنه قال : (ألا تُرُونِي رجلاً) وزعم يونس أنه نونٌ مضطراً ». .

قال الشارع :

« أما قوله

لا نسبَ اليوم ولا خلةً اتسع الحرق على الواقع
البيت لأنس بن العباس ، والكلام في نصب (خلة) وتنوينها
يتحمل أمرين : أحدهما أن تكون (لا) مزيدة لتأكيد النفي ،
دخولها كخروجها ، فنصبت الثانية ونونته بالاعطف على الأول
بالواو وحدها ، واعتمد بـ (لا) الأولى على النفي ، وجعل
الثانية مؤكدة للجحد كما يكون كذلك في (ليس) إذا قلت
(ليس لك غلام ولا جارية) ، فيكون في الحكم كقوله :

ولا أبَ وابناً مثل مروان وابنه

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزر(1)

الثاني : أن تكون نافية عاملة كالأولى كأنه استأنف بها النفي
فيكون حسنه في تنوين (خلة) إشكال ، فذهب سبوبيه والخليل

(1) لرجل يمدح مروان بن الحكم وابنه عبد الملك .

إلى أنها معربة منتصبة بإضمار فعل مذوف كأنه قال : (لا نسب
السوم ولا أرى خلة) ، ومثله قوله :

ألا رجلاً جزاء الله خيراً يدل على محصلة تبييت^(١)

وانتصابه في قول الخليل بفعل مذوف تقديره : (ألا تروني
رجلًا) . » وذهب يونس إلى أن انتصابه من قبل الضرورة ،
والذي دعاه إلى ذلك أن ألف الاستفهام إذا دخلت على (لا)
فلها معنيان : أحدهما الاستفهام ، والآخر التبني ؛ وإذا كانت
استفهاماً فحالها كحالها قبل أن تتحققها ألف الاستفهام فنقول
(ألا رجل في الدار ؟ ، وألا غلامًـ أفضل منك ،) كما كنت
تقول : (لا رجل في الدار ولا غلامًـ أفضل منك) تفتح الاسم
المنكور بعدها وترفع الخبر ، لا فرق بينهما في ذلك ؛ قال
الشاعر :

حارِ بنَ كعب ألا أحلامَ تزجركم (٢)
وإذا كانت تبنياً فلا خلاف في الاسم أنه مبني مع (لا) كما
كان ، إنما الخلاف في الخبر :

فأكثر النحويين لا يجيزون رفع الخبر ، وهو رأي سيبويه
والخليل والجري ، وإنما ينصبونه لأنه قد دخله معنى التبني
وصار مستغنباً كما استغنى (اللهم غلاماً) ومعناه : (اللهم هب
لي غلاماً) ، ولا يحتاج إلى خبر ، ومعناه معنى المفعول .

(١) المحصلة : المرأة تحصل الذهب من تراب المعدن وتخلاصه .

(٢) صدر بيت لحسان بن ثابت وعجزه :

عي وأنت من الجوف المخاير
الأجوف : عظيم الجوف - الجمchor : الضعيف .

وذهب ابو عثمان المازني إلى أنه يبقى على حاله من نصب الاسم ورفع الخبر ، ويكون على مذهب الخبر وإن كان معناه التمني ، كما أن قوله (غفر الله له) و (رحمه الله) : اللفظ خبر ومعناه الدعاء . وإذا كان ما بعد (ألا) في كلام وجهيه لا يكون مبنياً على الفتح أشكال الأمر في قول الشاعر :

ألا رجلاً جزاه الله خيراً

فحمله الخليل على تقدير فعل كأنه قال : (أروني رجلاً)
جعله من قبيل (هلا خيراً من زيد) ولو لا الكمي المقنعا (١) .
وحمله يونس على أن تنوينه ضرورة ، وهو مذهب ضعيف
لأنه لا ضرورة لها هنا »

(١) البيت بحرير : تدعون عقر النيل أفضل مجدكم بني ضوطري لو لا الكمي المقنعا
النيل جمع ناب وهو الجمل المسن . ضوطري : حمقي . والمعنى لو لا عدتم أو عقر لكمي . يعرض بالفرزدق الذي افتخر بعقر جده للجمال وإنهابها للناس .

ابن الأنباري (كمال الدين)

٥٧٧ - ٥١٣

عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد ، الإمام أبو البركات كمال الدين الأنباري التحوي المتفنن الزاهد الورع .

قدم بغداد في صباح وقرأ الفقه على سعيد بن الرزاز حتى برع ، وحصل طرفاً صالحاً من الخلاف ، وصار معيضاً للمدرسة (النظمية) ، وكان يعقد مجالس الوعظ ، ثم قرأ الأدب على أبي منصور الجو اليقي ، ولازم ابن الشجيري حتى برع وصار من المشار إليه في النحو ، وتخرج به جماعة .
وسمى بالأنبار من أبيه ، وببغداد من عبد الوهاب الأنطاطي ، وحدث باليسير ، لكن روى الكثير من كتب الأدب ومن مصنفاته . وكان إماماً ثقة صدوقاً فقيهاً مناظراً غزير العلم ورعاً زاهداً عابداً تقىً عفيفاً لا يقبل من أحد شيئاً ، خشن العيش والمأكل ، لم يتلبس من الدنيا بشيء ودخل الأندلس (!) فذكره ابن الزبير في الصلة (!) .

وله المؤلفات المشهورة منها :

- ١ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصرىين والكوفيين
- ٢ - الإغراب في جدل الإعراب
- ٣ - ميزان العربية
- ٤ - حواشى الإيضاح
- ٥ - مسألة دخول الشرط على الشرط
- ٦ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء
- ٧ - تصرفات لو
- ٨ - حلية العربية
- ٩ - الأضداد
- ١٠ - التوادر
- ١١ - تاريخ الأنبار
- ١٢ - هداية الذاهب في معرفة المذاهب
- ١٣ - بداية الهدایة
- ١٤ - الداعي إلى الإسلام في علم الكلام
- ١٥ - نجدة السؤال في عمدة السؤال
- ١٦ - الباب
- ١٧ - المختصر
- ١٨ - منشور القود في تحريد الحدود
- ١٩ - التنقح في مسلك الترجيح
- ٢٠ - الجمل في علم الجدل
- ٢١ - الاختصار في الكلام على الفاظ تدور بين النظار
- ٢٢ - عقود الإعراب
- ٢٣ - منثور الفوائد
- ٢٤ - مفتاح المذاكرة
- ٢٥ - كتاب كلام وكلتا
- ٢٦ - كتاب كيف

- ٢٨ - كتاب الألف واللام
 ٢٩ - كتاب في (يعفون)
 ٥١ - تفسير غريب «المقامات الحريرية»
 ٥٢ - شرح ديوان المنبي
 ٥٣ - شرح الحماسة
 ٥٤ - البيان في جمع (أغفل) أخف الأوزان
 ٥٥ - شرح السبع الطوال
 ٥٦ - شرح الأوهام وجلاء الأفهام في متعلق
 الظرف في قوله تعالى «أحل لكم ليلة
 الصيام

- ٥٦ - المقبوض في العروض
 ٥٧ - شرح المقبوض في العروض
 ٥٨ - الموجز في التوافي
 ٥٩ - اللمعة في صنعة الشعر
 ٦٠ - الجواهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم
 وأصحابه العشرة
 ٦١ - نكت المجالس في الوعظ
 ٦٢ - أصول الفصول في التصوف
 ٦٣ - التفريد في كلمة التوحيد
 ٦٤ - نقد الوقت
 ٦٥ - بغية الوارد
 ٦٦ - نسمة العبير في التعير
 ٤٠ - كتاب حيص بيص
 ٤١ - حلية العقود في الفرق بين المقصور
 والممدود
 ٤٢ - ديوان اللغة
 ٤٣ - زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد
 والظاء
 ٤٤ - البلقة في الفرق بين المذكر والمؤنث
 ٤٥ - فلت وأفلت
 ٤٦ - الألفاظ الجارية على لسان الجارية
 ٤٧ - قبسة الأديب في أسماء الذيب
 ٤٨ - القائق في أسماء المائق
 ٤٩ - البلقة في أساليب اللغة
 ٥٠ - قبسة الطالب في شرح خطبة
 «أدب الكاتب»

توفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسماة ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ومن شعره :

وأرقني أحزان وأوجاع
للسقم فيها وللام إسراع
وإن سمعت فكلي فيك أسماع (١)

إذا ذكرتك كاد الشوق يقتلني
وصار كلي قلوباً فيك دائمة
فإن نطقت فكلي فيك ألسنة

(١) بغية الوعاة ٣٠١ . وانظر ترجمة وافية عن حياته ومكانته في مقدمتنا لكتابين من كتبه حققناهما وطبعاً بطبعة الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٧ م ، وهما : « الإغراب في جدل الإعراب » و « لمع الأدلة » .

(١) كتاب «لمع الوردة»

(وهو أصل كتاب الاقتراح للسيوطى)

(٢) ادلة نصف في مسائل الخدف بين النحوين البصريين والكتوريين

«لئن شحت عن ابن الأنباري الأخبار ، لقد جادت بالتعريف به الآثار ؛ فقد تفرد بابتكاره في فن التأليف حتى ليستأثر بطابع خاص بين هذه الكثرة الكاثرة من المؤلفين في علوم العربية . وإن الذي ألف أسلوبه في تأليفه وتوليده ولبس أستاذيته في تنسيقه وعرضه ، ليميز كلامه من كلام غيره على أيسر سبيل مهما حاولت أن تغيبه بين عشرات الأساليب في مختلف الأعصار(١)». مما هذا الابتكار الذي يتسم به فن ابن الأنباري في التأليف ؟ .

«(١) نحن نعرف أن التطلع إلى أن يكون للعربية علوم وقواعد وأصول على مثل ما للشريعة ، (٢) أمنية داعبت همم الكثير من العلماء منذ المائة الثانية للهجرة ، فمحاكاة أهل الأدب واللغة أهل الحديث في فن الرواية والعنایة بالسند معروفة ، وكذلك تقليدهم مدرسة الرأي في الفقه في تعليم الأحكام

(١) من تقديمنا لرسالتي ابن الأنباري (الإغراب في جدل الاعراب) و (لمع الأدلة في أصول النحو) .

(٢) انظر فصل (أثر العلوم الدينية في علوم العربية) من كتابي (في أصول النحو) ص ٩ - مطبعة الجامعة السورية بدمشق ١٩٥٧ م

حدثهم على أن يجدوا لأحكام العربية علاً تشبه تلك من جهة ، وتشبه من جهة ثانية علل المتكلمين الذين اعتمدوا العقل والمنطق سلاحين في دعوتهم إلى فلسفة العقيدة ؛ فكان للنحو احتجاج بقواعد تشبه ما للمحدثين ، وقياس وعلل يشبهان ما للفقهاء والمتكلمين ، ثم عنوا بمسائل الخلاف عنابة الفقهاء بخلافهم . وكان من الطبيعي أن تكون خطأ النحو متأخرة في الزمن ، ومقلدة غير مبدعة ، ثم متعرّة غير ماضية ولا حاسمة ، وذلك لفارق العظيم بين طبيعة علوم الشريعة وطبيعة علوم اللغة .

ولم يكن لنا إلا محاولات جزئية في مسائل قام بها نوابغ أقوياء كالفارسي وابن جي ، لكن أحداً لم يحاول وضع تصميم لفن أصولي في اللغة كما فعل أهل الشريعة ... حتى جاء ابن الأنباري .

علم أصول الفقه تبيّنت مسائله منذ وضع محمد بن الحسن الشيباني كتبه (المبسوط ، والسير ، وزيادات ، والجامع الكبير ، والآثار) ووضع الإمام الشافعي الرسالة ... فكان النحو يحاولون ترسّم خطاهما على ضوء هذه الكتب وأمثالها ، وعرف المتأخرون خطأ متقديمهم ولم يستطعوا تقدماً يذكر ...

استمر هذا التطلع وتلك الحسرة طوال المئة الرابعة والمائة الخامسة ؛ فلما جاء ابن الأنباري اهتدى إلى أخطة ، ونازعته الفكرة نزاعاً شديداً إذ كانت كل المؤهلات تجتمع في فقام بها وحده ، وسجل في تاريخ العربية أوليات ثلاثة حين أسس الفنون الثلاثة الآتية لأول مرة :

١ - فن جدل الإعراب ، وضع له كتاب (الإغراب في جدل الإعراب) « ليكون أول ما صنف لهذه الصنعة في قوانين الجدل والأداب ليسلك به عند المجادلة والمناظرة » (١) ولم يكن لعلوم اللغة العربية في هذا الفن قبل رسالة ابن الأنباري كتاب .

٢ - فن أصول النحو ، على نسق فن الأصول للفقه ، وقد وضع له كتاب (لمع الأدلة) أول ما ألف في العربية في هذا الفن .

وقد جاء في مقدمة الرسالة أن « أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله ، كما ان أصول الفقه هي أدلة الفقه التي تنوّعت عنها جملته وتفصيله . وفائدة التعويل في إثبات الحكم على الحجّة والتعليل ، والارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاطلاع على الدليل ؛ فان المخلد إلى التقليد لا يعرف وجه الخطأ من الصواب ، ولا ينفك في أكثر الأمر عن عوارض الشك والارتياب ... الخ .

قسم الكتاب إلى ثلاثة فصلاً تبحث في الأدلة وأقسامها ، والنقل وشروطه وأنواعه ، وفي القياس وأقسامه وفي العلة وأنواعها وشروط الاستدلال بها ، ثم في الاستحسان واستصحاب الحال ومعارضة الأدلة

وعبارة المؤلف مرکزة مكثفة موجزة تعتمد على الشواهد ، وقد صبت في قوالب القواعد الشاملة مع امثلتها الموضحة .

(١) من مقدمة ابن الأنباري .

وظاهر أن دراسة هذا الفن حلقة عليا بعد دراسة النحو نفسه ، وقد طمح ابن جني أن يكون مؤسساً لهذا الفن ، وقد أشار إلى محاولة النحويين واللغويين أن يحوموا حوله ، فسجل في كتابه (الخصائص) استمداد علوم اللغة من علوم الشريعة واحتذاء النحويين حذو علماء الشريعة ، وأشار إلى كتب الإمام محمد صاحب أبي حنيفة بقوله « وكذلك كتب محمد بن الحسن رحمه الله ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها منتشرة في أثناء كلامه ، فيجمع بعضها إلى بعض بالللاطفة والرفق » (١) . لكن الله شاء أن تكون هذه السابقة لابن الأنباري بعد ابن جني بمئي سنة .

ثم يأتي السيوطي ويؤلف كتاب « الاقتراح » الذي كان الناس يعودونه الكتاب الفريد في (أصول النحو) ، حتى نشرنا كتاب ابن الأنباري ونبهنا على أنه هو الأصل الذي استقى منه السيوطي في (الاقتراب) أو (المزهر) وغيرهما ولم يشر إلا اشارة خفية إلى مصدره الأصلي محاولاً حجبه عن الأنظار (١) .

وسترى أسلوب ابن الأنباري في فصل من هذا الكتاب بعد قليل .

٣ - فن (الخلاف) بين المذاهب النحوية كانت مسائله مبعثرة ، بل كانت متعلقات المسألة الواحدة مشتتة في كتب البصريين والковفيين ، وألف غير واحد في أخلاق ، لكن أكثر هذه الكتب ردود جزئية ، وأول من بدأ بذلك ثعلب

(١) الخصائص ١٦٣/١ .

الковي . فلما ألف ابن الأباري كتابه الجليل «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والkovيين» صار لهذا الفن كتاب مسجل يسعف الدارسين لأول مرة بما يريدون . وقد كان هو نفسه معتزاً - وله الحق - وهو يشير إلى هذه الأولية مؤرخاً بقوله في مقدمة الإنصاف : «... سألوني أن أخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشهور المسائل الخلافية بين نحويي للبصرة والkovفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة ، ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذا الأسلوب ، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف ولا ألف عليه أحد من الخلف » .

وبذلك تحقق للنحو أمنية طالما تطلع إليها الكثيرون .

طبع هذا الكتاب بمطبعة بريل في ليدن سنة ١٩١٣ طبعة جيدة مخدومة بالفهارس والحواشى المختلفة مع دراسة بالألمانية ، ثم طبع في مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٤٠ طبعة أولى ثم طبعة ثانية ، ثم طبعة ثالثة بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥٥ في (٤٥٠) صفحة من القطع الوسط .

هذا الكتاب أعلى كتبه المطبوعة درجة وأنفسها فائدة . وفيه يتجلى أسلوبه كاملاً بجميع سماته . عرض فيه [(١٢١)] مسألة من مسائل الخلاف بين المدرستين ، فبسطها بسطاً شافياً . وخطته بعد ذكر موضوع المسألة أن يسير به مراحل أربعً تشبه مراحل الدعوى في المحاكم :

أولاً - سرد دعوى kovيين فيه ثم دعوى البصريين ،

وبذلك تحدد جوانب الموضوع كله .

ثانياً - الإدلة بالبيانات : فيبدأ بحجج الكوفيين يعرضها بوضوح ، ثم يعقبها بحجج البصريين كذلك .

ثالثاً - الردود : يعرض في هذه المرحلة لردود كل فريق على حجاج الفريق الآخر ، وأغلب ما يطرد ذلك للبصريين .

ابعاً - الحكم : لكن هذه المرحلة لا تطرد في كل المسائل ، فكأن ابن الأنباري يكتفي بإيراد ردود البصريين على حجاج الأولين ، فتكون هذه الردود حكمه هو نفسه في المسألة المعروضة . على أنه نصر مذهب الكوفيين في مسائل قليلة .

والكتاب حافل بقواعد أصولية عامة ، غير المسائل الكثيرة التي يسوق إليها الاستطراد ، أما الشواهد وكثيرتها فحدث عنها ولا حرج ، إذ هي عمدة كل فريق في نصر ما يذهب إليه .

ودارس الكتاب (١) لا يشعر إلا أنه في قاعة محكمة جلس فيها المحاكمان ومحاموهما ، والنظرارة يسمعون إلى المدعى وبينته ثم إلى المدعى عليه وحجته ، ثم إلى دفع كل حجة خصميه ؛ فلا يكاد ينتهي المجلس إلا وقد خرج النظارة بالحكم مطمئنين أحياناً ومتربدين أحياناً ، قد علقوا على بعض الحجاج بما يوهنها أو يقويها ، وعرضوا للحكم أحياناً بما يؤيده أو بما يشكك فيه ، وقد امتلأت حقائبهم من قواعد

(١) كنت قررت تدرис هذا الكتاب في شهادة علوم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة السورية بدمشق منذ سنة ١٩٤٨ ، وأنا أشهد أنني والطلاب كنا ننتظر بشوق موعده الأسبوعي ، لشغورنا بالجلو القضائي فيه أكثر من الجلو الدراسي .

أصولية عامة اتفق على رعايتها الطرفان ، فإذا أخل بعضها
تعرض المدخل لحساب غير يسير .

عرفت التواليف النحوية من بعد سيبويه حتى يومنا هذا
بليس الاسلوب غالباً ، وجفاف العرض وإملال القارئ ،
لكن الأنباري - والحق يقال - (أدب) النحو وأضفى على
أسلوب عرضه من المائية والتندية ما حبه إلى المطالع فأبعد عنه
عنه السأم ، وليس بقليل أن نعرض ما يشبه الأرقام والقضايا
المنطقية عرضاً جذاباً .

إنني إذا أردت التعبير عن أسلوب ابن الأنباري بكلمة جامعة
لم أجد أصدق من قوله : «أسلوب رياضي جميل» . أما
(الجمالية) فشيء يتذوق ولا يعرف ، لكنني أشير عليك بأن
تقرأ صفحة لابن الأنباري في كتاب (الإنصاف) مثلاً وتقرأ
في موضوعها صفحة أخرى من أي عصر شئت مع وجود
بلغاء كثرين ألفوا في النحو ، إنك لن تجد في طراوة أسلوبه
وسهولته أسلوباً لعالم آخر ، حتى ولا ابن جني ، وأما (الرياضية)
في أسلوبه فسمة بارزة تنادي على نفسها في (الإغراب في جدل
الإعراب) وفي (مع الأدلة) وفي (الإنصاف) وفي (أسرار
العربية) وحتى في (نزهة الألباء) وهو مقصور على ترجمة
العلماء حيث تجد الترجم مركزة منسقة لا فضول فيها ولا
التواء . (١) .

وإليك الآن نصاً من (مع الأدلة) ونصوصاً من كتاب
(الإنصاف في مسائل الخلاف) :

(١) أكثر هذا التعريف من مقدمتنا في التعريف بالمؤلف وآثاره وخصائصها في نشرتنا
(رسالتان لابن الأنباري - مطبعة الجامعة السورية بدمشق ١٩٥٧) .

من (لمع الاردة) في اصول النحو

الفصل العاشر في القياس (١)

اعلم أن القياس في وضع اللسان بمعنى التقدير ، وهو مصدر (قياست الشيء بالشيء مقاييسه وقياساً : قدرته) ، ومنه (المقياس) أي المقدار ، و (قييس رمح) أي قدر رمح . وهو في عرف العلماء عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل . وقيل : « هو حمل فرع على أصل بعلة ، وإجراء حكم الأصل على الفرع » ،

وقيل : « هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع » ،

وقيل : هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع . وهذه الحدود كلها متقاربة .

ولا بد لكل قياس من أربعة أشياء: أصل وفرع وعلة وحكم . وذلك مثل أن ترکب قياساً في الدلالة على رفع ما لم يسم فاعله فتقول :

« اسم أنسد الفعل إليه مقدماً عليه فوجب أن يكون مرفوعاً
قياساً على الفاعل »

فالأصل هو الفاعل ، والفرع هو ما لم يسم فاعله ، والعلة الجامعة هي الإسناد ، والحكم هو الرفع . والأصل في الرفع أن يكون للأصل الذي هو الفاعل ، وإنما أجري على الفرع الذي هو ما لم يسم فاعله بالعلة الجامعة التي هي الإسناد . وعلى هذا النحو تركيب كل قياس من أقىسة النحو .

(١) ص ٩٣ من المصدر السابق .

فإن قيل : « فلم كان إسناد الفعل إلى الفاعل الذي هو الأصل موجباً للرفع دون النصب ؟ وهلا كان الأمر بالعكس ؟ »
 قيل : « لأنه لما وجب الفرق بين الفاعل والمفعول لإزالة اللبس ، ووجدنا إسناد الفعل لا يكون إلا إلى فاعل واحد ، ووقوعه يكون على مفعولات كثيرة : فمنه ما يقع على مفعول واحد ، ومنه على مفعولين ، ومنه على ثلاثة مفعولين ، مع أن جنس الفعل متعدياً كان أو لازماً يتعدى إلى سبعة أشياء غير هذه الثلاثة وهي : المصدر وظرف الزمان وظرف المكان والمفعول له والحال والمفعول معه والمستثنى ، مع خلاف في المفعول معه والمستثنى ؛ فتلك عشرة كاملة . ولا يسند في ذلك كله إلا إلى فاعل واحد ؛ فلما كان إسناد الفعل إلى الفاعل أقلَّ ووقوعه على المفعول أكثر ، والرفع أثقل والنصب أخف ، أعطي الأقلَّ الأثقلَ والأكثرُ الأخفَّ معادلةً بينهما ؛ ولو عكس ذلك لكان عدولاً عن المعادلة التي تقتضيها قضية المعدلة ، واستكثاراً لما يستثنى في كلامهم ، وتركاً للمنسبة ، وخروجاً عن قانون الحكمة .
 وما ذلك - في ضرب المثال - إلا بمتزلة رجل جعل بين يديه حجرين : أحدهما وزنه منا^(١) والآخر وزنه عشرة أمناء ، وأمر إنساناً أن يحمل ما هو عشرة أمناء مرة واحدة ، وما هو مناً عشر مرات ليكون قلة العمل بإزاء الثقل ، وكثرة العمل بإزاء الخفة - فانه لاخفاء بأن ذلك مقارب للحكمة ؛ ولو أمره بحمل الثقل عشر مرات وبحمل الخفيف مرة واحدة لكان

(١) المنا : رطلان .

ذلك مبادئاً للحكمة لجمعه عليه بين الثقل و كثرة العمل في حالة واحدة ، وبين قلة العمل والخففه في حال أخرى ، فكذلك ها هنا وقد قيل في الجواب عن هذا السؤال عدة أقاويل ، وإنما اقتصرنا على هذا القول لأن غرضنا التمثيل لا للتطويل بكثرة التعليل .

٢ - كتاب الانصاف في مسائل الخلاف

مقدمة كتاب الانصاف

قال الشيخ الإمام العالم الزاهد كمال الدين بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الأنباري وفقه الله :
الحمد لله الملك الحق المبين ، والصلوة والسلام على صفوته
النبي العربي المبعوث بالدين المبين ، وعلى آله وأصحابه
وعترته البررة المتقيين .

وبعد ؛ فان جماعة من الفقهاء المتأدبين ، والأدباء المتفقهم ،
المشتغلين علي بعلم العربية ، بالمدرسة النظامية – عمر الله مبانيها
ورحم بانيها – سألوني أن الخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على
مشاهير المسائل الخلافية بين نحوبيي البصرة والكوفة ، على
ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة ؛ ليكون أول
كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذه
الأسلوب ؛ لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف ،
ولا ألف عليه أحد من الخلف ، فتوخيت إجابتهم على وفق
مسائلهم ، وتحريت إسعافهم لتحقيق طلبتهم ؛ وفتحت في

(١) مر بـك من ٧٧ نص المسألة ٩٢ من كتاب (الإنصاف) وموضوعها خلافهم حول
السين وسوف ، وإليك الآن مقدمته وثلاث مسائل أخرى منه .

ذلك الطريق ، وذكرت من مذهب كل فريق ما اعتمد عليه
أهل التحقيق ، واعتمدت في النصرة ، على ما أذهب إليه من
مذهب أهل الكوفة أو البصرة ، على سبيل الإنصاف ، لا
التعصب والإسراف . مستجيرًا بالله ، مستخيرًا له فيما قصدت
إليه ؛ فالله تعالى ينفع به ؛ إنه قريب مجيب .

المسألة الأولى (١)

استفهام للعلامة «اسم»

ذهب الكوفيون إلى أن «الاسم» مشتق من «الوسم» وهو العلامة ؛ وذهب البصريون إلى أنه مشتق من «السمو» وهو العلو .

اما السهو فهو

فاحتجوا بان قالوا : «إنما قلنا ، إنه مشتق من «الوسم» لأن «الوسم» في اللغة هو العلامة ، والاسم وسم على المسمى ، وعلامة له يعرف به ؛ ألا ترى أنك إذا قلت : «زيد» أو «عمرو» دل على المسمى فصار كالوسم عليه ؟ . فلهذا قلنا : «إنه مشتق من الوسم» ، ولذلك قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢) : الاسم سمة توضع على الشيء يعرف بها ، والأصل في «اسم» : (وسم) إلا أنه حذفت منه الفاء التي هي الواو في «وسم» وزيدت الممزة في أوله عوضاً عن المحذوف . وزنه «إعلى» لحذف الفاء منه .

(١) الطبعة الثالثة (مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٤ - ١٩٥٥ م) - ص ٤

(٢) من أئمة الكوفيين .

وأما البصريون

فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا : «إنه مشتق من «السمو» لأن «السمو» في اللغة هو العلو . يقال : سما يسمو سمواً إذا علا ، ومنه سميت «السماء» سماء لعلوها ، والاسم يعلو على المسمى ، ويدل على ما تحته من المعنى ، ولذلك قال أبو العباس محمد بن يزيد البرد (١) : الاسم ما دل على مسمى تحته ، وهذا القول كاف في الاستدلال ، لا في التحديد ، فلما سما الاسم على مسماه وعلا على ما تحته من معناه دل على أنه مشتق من «السمو» لا من «الوسم» .

ومنهم من تمسك بأن قال : إنما قلنا إنه مشتق من «السمو» وذلك لأن هذه الثلاثة الأقسام التي هي الاسم ، والفعل ، والحرروف ، لها ثلاثة مراتب ؛ فمنها ما يخبر به ويخبر عنه وهو الاسم نحو «الله ربنا و محمد نبينا» وما أشبه ذلك ، فأخبرت بالاسم وعنده ؛ ومنها ما يخبر به ولا يخبر عنه وهو الفعل نحو «ذهب زيد» و «انطلق عمرو» وما أشبه ذلك فأخبرت بالفعل ، ولو أخبرت عنه فقلت «ذهب ضرب» ، وانطلق كتب » لم يكن كلاماً ؛ ومنها ما لا يخبر به ولا يخبر عنه وهو الحرف ، نحو «من ، ولن ، ولم ، وبـل» وما أشبه ذلك ؛ فلما كان الاسم يخبر به ويخبر عنه ، والفعل يخبر به ولا يخبر عنه ، والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه ، فقد سما على الفعل والحرف ، أي علا ، فدل على أنه مشتق من «السمو»

(١) من آئمة البصريين .

والأصل فيه «سيمو» على وزن «فِعْلٌ» - بكسر الفاء وسكون العين فحذفت اللام التي هي الواو ، وجعلت الهمزة عوضاً عنها ، ووزنه «إفع» لحذف اللام منه .

وأما الجواب عن الكلمات السقوفية :

قولهم : (إنما قلنا إنه مشتق من الوسم ، لأن الوسم في اللغة ؛ العالمة ، والاسم وسم على المسمى وعلامة عليه يعرف به) قلنا : هذا وإن كان صحيحاً من جهة المعنى إلا أنه فاسد من جهة اللفظ ، وهذه الصناعة لفظية .. فلا بد فيها من مراعاة اللفظ ؛ ووجه فساده من جهة اللفظ من خمسة أوجه :

الوجه الأول : أنا أجمعنا على أن الهمزة في أوله همزة التعويض ، وهمزة التعويض إنما تقع تعويضاً عن حذف اللام ، لا عن حذف الفاء ، ألا ترى أنهم لما حذفوا اللام الآي هي الواو من (بنو) عوضوا عنها الهمزة في أوله فقالوا : «ابن» ، ولما حذفوا الفاء التي هي الواو من (وعد) لم يعوضوا عنها الهمزة في أوله ، فلم يقولوا : «اعد» ، وإنما عوضوا عنها الهاء في آخره فقالوا : «عدة» ، لأن القياس فيما حذف منه لامه أن يعوض بالهمزة في أوله ، وفيما حذف منه فاؤه أن يعوض بالهاء في آخره ، والذي يدل على صحة ذلك أنه لا يوجد في كلامهم ما حذف فاؤه وعوض بالهمزة في أوله ، كما لا يوجد في كلامهم ما حذف لامه وعوض بالهاء في آخره ، فلما وجدنا في أول «اسم» همزة التعويض علمنا

أنه مخدوف اللام ، لا مخدوف الفاء ، لأن حمله على ماله نظير أولى من حمله على ما ليس له نظير ، فدل على أنه مشتق من «الوسم» .

والوجه الثاني : أنك تقول : «أسميته» ولو كان مشتقاً من «الوسم» لوجب أن تقول : «أوسمته» ، فلما لم تقل إلا «أسميت» دل على أنه من السمو ، وكان الأصل فيه «أسموت» إلا أن الواو التي هي اللام لما وقعت رابعة قلبت ياء كما قالوا : «أعليت ، وأدعيت» ، والأصل «أعلوت» «وأدعوت» إلا أنه لما وقعت الواو رابعة قلبت «ياء» ، فكذلك ها هنا .

ولإنما وجوب أن تقلب الواو ياء رابعة من هذا النحو حمله للماضي على المضارع ، والمضارع يجب قلب الواو فيه ياء نحو «يعلي ويديعي ، ويسمى» والأصل فيه «يعلو ، ويذعن ، ويسمو» . وإنما وجوب قلبها ياء في المضارع لوقوعها ساكنة مكسورةً ما قبلها ، لأن الواو متى وقعت ساكنة مكسورةً ما قبلها وجوب قلبها ياء ، ألا ترى أنهم قالوا : «ميقات ، وميعاد ، وميزان» والأصل «موقات ، وموعاد ، وزمان» ، لأنه من «الوقت ، والوعد والوزن» ؛ إلا أنه لما وقعت الواو ساكنة مكسورةً ما قبلها ، وجوب قلبها ياء فكذلك ها هنا .

ولإنما حملوا الماضي على المضارع مراعاة لما بنوا عليه كلامهم من اعتبار حكم المشاكلة والمحافظة على أن تجري الأبواب على سن واحد ؛ ألا ترى أنهم حملوا المضارع على الماضي إذا اتصل به ضمير جماعة النسوة نحو «تضربن» وحذفوا الهمزة

من أخوات «أَكْرَم» نحو «نَكْرَم ، وَتَكْرَم ، وَيَكْرَم» والأصل فيها : «نُؤَكْرَم ، وَتُؤَكْرَم ، وَيُؤَكْرَم» كما قال :
فإنه أهل لأن يؤكرما

حملًا على «أَكْرَم» ؛ وإنما حذف إحدى الهمزتين من «أَكْرَم» لأن الأصل فيه «أُؤَكْرَم» فلما اجتمع فيه همزتان كرهوا اجتماعهما فحذفوا إحداهما تخفيفاً ، ثم حملوا سائر أخواتها عليها في الحذف ، وكذلك حذفوا الواو من أخوات «يَعْد» نحو «أَعْد ، وَنَعْد ، وَتَعْد» والأصل فيها «أَوَّعْد ، وَنَوَّعْد ، وَتَوَّعْد» حملًا على «يَعْد» وإنما حذفت الواو من «يَعْد» لوقعها بين ياء وكسرة . ثم حملوا سائر أخواتها عليها في الحذف ، كل ذلك لتحقيل التشاكل ، والفرار من نفرة الاختلاف ، وكذلك ها هنا ، حملوا الماضي على المضارع ، وببل أولى ؛ وذلك لأن مراعاة المشاكلة بالقلب أقيس من مراعاة المشاكلة بالحذف ؛ لأن القلب تغيير يعرض في نفس الحرف ، والحذف إسقاط لأصل الحرف ، والاسقاط في باب التغيير أتم من القلب ، فإذا جاز أن يراعوا المشاكلة بالحذف وبالقلب أولى ؛ وأما قلب الواو ياء في الماضي في نحو «تَغَازِيت ، وَتَرْجِيت» وإن لم تقلب ياء في المضارع ، لأن الأصل في «تَغَازِيت : غَازِيت» وفي «تَرْجِيت : رَجِيت» فزيدت التاء فيهما لتدل على المطاوعة ، و «غَازِيت وَرَجِيت» يجب قلب الواو فيهما ياء في المضارع ، ألا ترى أنك تقول في المضارع «أَغَازِي ، وَأَرَجِي» وكذلك في الماضي ، وإذا لزم هذا القلب قبل الزيادة في «غَازِيت أَغَازِي» و «رَجِيت

أرجي » فكذلك بعد الزيادة في « تغاظيت وترجيت » حملأ
لـ « تغاظيت » على « غازيت » ، و لـ « ترجيت » على « رجيت »
مراجعة للتشاكل وفارأً من نفرة الاختلاف .

والوجه الثالث : أنك تقول في تصغيره « سميّ » ، ولو كان
مشتقاً من « الوسم » لكان يجب أن تقول في تصغيره « وُسِيمٌ »
كما يجب أن تقول في تصغير « زنة ، وزينة » وفي تصغير
« عدة : وعيدة » ؛ لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ،
فلما لم يجز ان يقال إلا : « « سميّ » دل على أنه مشتق من
« للسمو » ، لا من « الوسم » .

والأصل في « سُمِّيَّ » : سُمِّيُّو ، إلا انه لما اجتمعت الياء
والواو والسابق منها ساكن قلبوا الواو ياء ، وجعلوهما ياء
مشددة ، كما قالوا : « سيد ، وجيد ، وهين ، وميت »
والأصل فيه « سِيُود ، وجِيود ، وهِيون ، ومِيُوت » ، لأنه
من السود والجودة والهوان والموت ، إلا أنه لما اجتمعت
الياء والواو والسابق منها ساكن قلبوا الواو ياء ، وجعلوهما
ياء مشددة ، وكذلك أيضاً قالوا : « طويت طيا ، ولويت ليَا ،
وشويت شيا » ، والأصل فيه : « طُويَا ، ولُويَا ، وشُويَا » ،
إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منها ساكن قلبوا
الواو ياء ، وجعلوهما ياء مشددة ، وإنما وجب قلب الواو
إلى ياء دون قلب الياء إلى الواو ، لأن الياء أخف من الواو ،
فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر ، كان قلب الأثقل إلى
الأخف أولى من قلب الأخف إلى الأثقل

والوجه الرابع : أنك تقول في تكسيره « أسماء (وأسامٍ) » ولو كان مشتقاً من « الوسم » لوجب أن تقول : « أوسام وأواسيم » فلما لم يجز أن يقال إلا « أسماء » دل على أنه مشتق من « السمو » لا من « الوسم » . والالأصل في « أسماء : أسماؤ » ، إلا أنه لما وقعت الواو طرفاً وقبلها ألف زائدة قلبت همزة كما قالوا « سماء ؛ وكسماء ورجاء ونجاء » والأصل فيه : سماو ، وكسماؤ ورجاو ونجاو » ، لقولهم : « سمات ، وكسموت ، ورجوت ، ونجوت » إلا أنه لما وقعت الواو طرفاً وقبلها ألف زائدة قلبت همزة .

ومنهم من قال : إنها قلبت ألفاً لأن الألف التي قبلها لما كانت ساكنة خفية زائدة والحرف الساكن حاجر غير حصين لم يعتدوا بها ، فقدروا أن الفتحة التي قبل الألف قد وليت الواو وهي متحركة ، والواو متى تحركت وانفتح ما قبلها وجب أن تقلب ألفاً ، ألا ترى أنهم قالوا : « سما ، وعلا ، ودعا ، وغزا » والأصل فيها : « سمو ، وعلو ، ودعوا ، وغزو » لقولهم « سمات ، وعلوت ، ودعوت ، وغزوت » إلا أنه لما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فكذلك هنا قلبو الواو في « أسماؤ » ألفاً ، فاجتمع فيه الفان : ألف زائدة ، وألف منقلبة عن لام الكلمة ، والالفان ساكتان ، وهم لا يجتمعان ، فقلبته الألف الثانية المنقلبة عن لام الكلمة همزة لالتقاء الساكنين ، وإنما قلبت إلى الهمزة دون غيرها من الحروف لأنها أقرب الحروف إليها ، لأن الهمزة هوائية كما أن الألف هوائية فلما كانت أقرب الحروف إليها كان قلبهما

إليها أولى من قلبها إلى غيرها.

والوجه الخامس : أنه قد جاء عن العرب أنهم قالوا في «اسم : سُمِّي» على وزن «عُمْلٍ» والأصل فيه «سمو» إلا أنهم قلبوا الواو منه ألفاً لتحركها وافتتاح ما قبلها ، فصار «سُمِّي».

قال الشاعر :

والله أسماك سُمِّي مباركاً آثرك الله به إشاركاً
وفيه خمس لغات : «اسم» : بكسر الهمزة ، و «اسم»
بضمها ، و «سم» بكسر السين ، و «سم» بضمها . قال
الشاعر :

وعامنا أعجبنا مقدمة يدعى أبوالسمح وقرضاب سُمه
مبتركاً لكل عظم يلحمه (١)

وقال :

باسم الذي في كل سورة سمه قد وردت على طريق تعلمه
ويروى «سمه» بضم السين ، و «سمى» على وزن «على»
على ما بيننا والله أعلم (٢) .

(١) القرضاب : الأسد ، اللص ، السيف القطاع . مبارك معتمد على شيء ، ملح .

(٢) انظر عرض هذا الخلاف في أحمالي ابن الشجري ٦٦/٢ ففيه ما ليس هنا .

مسألة (١١٧) (١)

وزنه انسان

ذهب الكوفيون إلى أن «إنسان» وزنه «إفعان». وذهب البصريون إلى أن وزنه «فulan» وإليه ذهب بعض الكوفيين.

اما الكوفيون :

فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن الأصل في «إنسان : إنسان» على «إفعان» من النسيان ، إلا أنه لما كثر في كلامهم وجرى على ألسنتهم حذفوا منه الياء التي هي اللام لكثرتها في استعمالهم ، والحذف لكترة الاستعمال كثير في كلامهم ، كقولهم : «أينش» في «أي شيء» و«عم صباحاً» في «نعم صباحاً» و«ويلمه» في «ويل أمه» قال المذلي :

ويلمه رجالاً تأبى به غبناً
إذا تجرد لanaxال ولا بخل (٢)

(١) ص ٤٣٢

(٢) البيت المتنقل المذلي من قصيدة يرثي بها ابنته أثيلة - والمعنى تأبى أن تلحق بها غبناً أي ضعف رأي ، والأنفال : النيلاء أي لا يكبر فيه ولا يخل - انظر ديوان المذلين . ٣٤/٢

وقال الآخر :

ويلمّه مسعاً حرب إذا
ألقي فيها وعليه الشليل (١)

والذي يدل على أن «إنسان» مأخوذ من «النسيان» لأنهم
قالوا في تصغيره «أنيسيان» فردوا الياء في حال التصغير ؛
لأن الاسم لا يكثُر استعماله مصغراً كثرة استعماله مكبراً ،
والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، فدل على ما قلناه .

وأما البصريون

فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا إن وزنه «فعulan» لأن «إنسان»
مأخوذ من «الإنس» وسمى «الإنس» إنساً لظهورهم ، كما
سمى «الجن» جنا لا جتناهم : أي استثارهم ، ويقال :
«آتست الشيء» إذا أبصرته ، قال الله تعالى : (آنس من جانب
الطور ناراً) (٢) أي : أبصر ، وكما أن الهمزة في «الإنس»
أصلية ، ولا ألف ونون فيه موجودتان ، فكذلك الهمزة أصلية
في «إنسان» ويجوز أن يكون سمي «الإنس» إنساً لأن هذا
الجنس يستأنس به ويوجد فيه من الأنس وعدم الاستيحاش
ما لا يوجد في غيره من سائر الحيوان ، وعلى كلا الوجهين
فالالف والنون فيه زائدتان ؛ فلهذا قلنا : إن وزنه «فعulan» .

(١) مسعاً حرب : مقدح حرب ، أي بطل حرب يمسعها كلما ركبت .

والشليل : الدرع الصغيرة ، غلالة تلبس تحت الدرع .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٨ .

وأما الجواب عن كلامات السكو فين

أما قولهم : (إن الأصل في «إنسان : إنسيان» إلا أنهم لما كثروا في كلامهم حذفوا منه الياء لكثره الاستعمال ، كقولهم «أيش» في «أي شيء» و «عم صباحاً» في «أنعم صباحاً» و «يلمه» في «ويل أمه») قلنا : هذا باطل ؛ لأنه لو كان الأمر كما زعمتم لكان يجوز أن يؤتى به على الأصل ، كما يجوز أن تقول : «أي شيء ، وانعم صباحاً ، وويل أمه» على الأصل ، فلما لم يأت ذلك في شيء من كلامهم في حالة اختيار ولا ضرورة دل على بطلان ما ذهبتم إليه .

وأما قولهم : «إنهم قالوا في تصغيره «أنيسيان» قلنا : إنما زيدت هذه الياء في «أنيسيان» على خلاف القياس ، كما زيدت في قولهم «لييلية» في تصغير «ليلة» و «عشيدشية» في تصغير «عشية» وكقولهم على خلاف القياس «مغيربان» في تصغير «مغرب» و «رويجل» في تصغير «رجل» إلى غير ذلك مما جاء على خلاف القياس ، فلا يكون فيه حجة ؛ والله أعلم .

مسألة ١١٦ (١)

التعجب من البياض والسواد

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز أن يستعمل «ما أفعله» في التعجب من البياض والسواد خاصة من بين سائر الألوان ، نحو أن تقول : «هذا الثوب ما أبيضه ، وهذا الشعر ما أسوده» وذهب البصريون إلى أن ذلك لا يجوز فيهما كغيرهما من سائر الألوان .

أما السكريون :

فاحتجوا أن قالوا : إنما جوزنا ذلك للنقل والقياس ، أما النقل ، فقد قال الشاعر :

إذا الرجال شتوا واشتد أكلهم
فأنت أبيضهم سربال طباخ (٢)

ووجه الاحتجاج أنه قال : «أبيضهم» وإذا جاز ذلك في

(١) ص ٤٣٥ .

(٢) كتابة عن بخله .

«أفعليهم» جاز في «ما أفعله ، وأفعل به» لأنهما بمنزلة واحدة في هذا الباب ، وقد قال الشاعر :

جارٍ في درعها الفضفاض تقطّع الحديث بالإيماظ
أيضاً من أخت بنى إياض (١)

فقال : «أبيض» وهو «أ فعل» من البياض ، وإذا جاز ذلك في «أ فعل من كذا» جاز في «ما أ فعله ، وأ فعل به» لأنهما بمترلة واحدة في هذا الباب ، ألا ترى أن ما لا يجوز فيه «ما أ فعله» لا يجوز فيه «أ فعل من كذا» وكذلك بالعكس منه ، ما جاز فيه «ما أ فعله» جاز فيه «أ فعل من كذا» فإذا ثبت أنه يمتنع في كل واحد منها ما يمتنع في الآخر ، ويجوز فيه ما يجوز في الآخر دل على أنهما بمترلة واحدة ، وكذلك القول في «أ فعل به» في الجواز والامتناع ، فإذا ثبت هذا فوجب أن يجوز استعمال «ما أ فعله» من البياض .

وأما القياس فقالوا : إنما جوزنا ذلك من «السوداد ، والبياض» دونسائر الألوان لأنهما أصلاً الألوان ، ومنهما يتربّع سائرها من الحمرة والصفرة والخضراء والصهبة والشهبة والكعبية (٢) إلى غير ذلك ، فإذا كانا هما الأصلين للألوان كلها جاز أن يثبت لهما مالا يثبت لسائر الألوان ؛ إذ كانوا أصلين لها ، ومتقدمين عليها .

(١) جاء في الكامل للمبرد ٢٦١ هذا الشاهد لعبد الله بن الزبير الأسيدي :
 بما خطنا خسف نجاوئك منها ركبتك حولياً من الثلوج أشها
 والشاعر يضطر في غير البياض والسوداد ، ولو فطن الكوفيون لهذا الشاهد لغضوا
 على بنواحد .

(٢) الكهبة في ألوان الإبل : هي غبرة مشربة سواداً ، لون ليس بخالص الحمرة .

وأما البصريون :

فاحتاجوا بأن قالوا : الدليل على أنه لا يجوز استعمال « ما أفعله » من البياض والسوداد أنا أجمعنا على أنه لا يجوز أن يستعمل مما كان لونا غيرهما من سائر الألوان ، فكذلك لا يجوز منها ، وإنما قلنا ذلك لأنه لا يخلو امتناع ذلك إما أن يكون لأن باب الفعل منها أن يأتي على « أفعل » نحو « أحمر ، وأصفر ، وأخضر » وما أشبه ذلك ، و لأن هذه الأشياء مستقرة في الشخص لا تقاد تزول فجرت مجرى أعضائه ، وأي العلتين قدرنا وجدنا المساواة بين البياض والسوداد وبين سائر الألوان في علة الامتناع ، فينبغي ألا يجوز فيما كسائر الألوان .

وأما الجواب عن كلمات السوفيين :

أما احتجاجهم بقول الشاعر :

فأنت أبيضهم سربال طباخ

فلا حجة فيه من وجهين :

أحدهما : أنه شاذ فلا يؤخذ به ، كما أنسد أبو زيد :

يقول الخن وأبغض العجم ناطقاً

إلى ربنا صوت الحمار الناجد

ويستخرج اليربوع من نافقائه
ومن جحره بالشیحة الیتقصص (١)

فأدخل الألف واللام على الفعل ، وأجمعنا على أن استعمال
مثل هذا خطأ لشذوذه قياساً واستعمالاً ، فكذلك ها هنا .
 وإنما جاء هذا لضرورة الشعر ، والضرورة لا يقاس عليها ،
كما لو اضطر إلى قصر المدود على أصلنا وأصلكم ، أو إلى
مد المقصور على أصلكم ، وعلى ذلك سائر الضرورات ،
ولا يدل جوازه في الضرورة على جوازه في غير الضرورة ،
فكذلك ها هنا ، فسقط الاحتجاج به ، وهذا هو الجواب عن
قول الآخر :

أبيض من أخت بني إباض

والوجه الثاني : أن يكون قوله « فأنت أبيضهم » أفعل « الذي
مؤنثه « فعلاء » كقولك : « أبيض ، وببيضاء » ولم يقع الكلام
فيه ، وإنما وقع الكلام في « أفعل » الذي يراد به المفاضلة نحو
« هذا أحسن منه وجهاً ، وهو أحسن القوم وجهاً » فكأنه قال
« مبيضهم » فلما أضافه انتصب ما بعده عن تمام الاسم ؛ وهذا
هو الجواب عن قول الآخر « أبيض من أخت » ومعناه
« في درعها جسد مبيض من أخت بني إباض » ويكون « من »

(١) الخن : الفحش . العجم : جمع أعمج وهو الحيوان . اليربوع : الضب . النافقاء الباب
الخلفي لحجر اليربوع . الشيج : نبات سهلي يتخد من بعضه المكابس ، طيب الرائحة
مر الطعم . يتقصص : يستخرج التراب من جحر اليربوع .
و (ال) في (اليدفع) و (اليتقصص) اسم موصول أصلها (الذي يمدد ، الذي
يتقصص) فاقتصر الشاعر من اسم الموصول على (ال) ضرورة شعرية . والبيتان الذي
آخر الطهوي .

أخت» ها هنا في موضع رفع ، لأنها صفة لـ « أبيض » ،
كأنه قال : « أبيض كائن من أخت » كقولهم : « أنت كريم من
بني فلان » ونحوه قول الشاعر :

وأبيض من ماء الحديد كأنه

شهاب بدا والليل داج عساكره (١)

قوله : « من ماء الحديد » في موضع رفع ، لأنه صفة
« أبيض » وتقديره « وأبيض كائن من ماء الحديد » ونحوه أيضاً
قول الآخر :

لما دعاني السمهري أجبته بأبيض من ماء الحديد صقيل

وأما قوله : « إنما جوزنا ذلك لأنهما أصلان للألوان ،
ويجوز أن يثبت للأصل ما لا يثبت للفرع » قلنا : هذا لا
يستقيم ، وذلك لأن سائر الألوان إنما لم يجز أن يستعمل منها
« ما أفعله ، وأفعل منه » لأنها لازمت محالها ، فصارت كعضو
من الأعضاء ، فإذا كان هذا هو للعلة فنقول : هذا على أصلكم
اللزم ، وذلك لأنكم تقولون : « إن هذه الألوان ليست بأصل
في الوجود » على ما تزعمون ، بل هي مركبة من للبياض
والسوداد ، فإذا لم يجز مما كان مركبا منها للازمته المحل ،
ف لأن لا يجوز مما كان أصلا في الوجود وهو ملازم للمحل
كان ذلك من طريق الأولى ، والله أعلم .

(١) داج ظلماته .

ابن مالك

٦٧٢ - ٦٠٠

« محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك ، العلامة جمال الدين أبو عبد الله الطائي الحياني الشافعى التحوى ، نزيل دمشق ، إمام النحوة وحافظ اللغة .

قال الذهبي : ولد سنة ستمائة أو إحدى ستمائة ، وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعة ، وأخذ العربية عن غير واحد ، وجالس بحلب ابن عمرون وغيره ، وتصدر بها لإقراء العربية وصرف همه إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وحاز قصب السبق ، وأربى على المتقدمين .

وكان إماماً في القراءات وعلها ؛ وأما اللغة فكان إليه المتنهي في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على حوشتها ، وأما التحو والتصريف فكان فيما يجراه لا يجاري ، وسبباً لا يباري . وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكانت الأئمة الأعلام يتبحرون فيه ويتعجبون : من أين يأتي بها .

وكاننظم الشعر سهلاً عليه رجزه وطويله وبسيطه وغير ذلك . . . هذا مع ما هو عليه من الدين المتين وصدق اللهجة وكثرة النواقل وحسن السمت ورقة القلب وكمال العقل والوقار والتؤدة . أقام بدمشق مدة يصنف ويشغل ، وتصدر بالتربة العادلة وبالجامع المعمور . وتخرج به جماعة كثيرة وصنف تصانيف مشهورة .

وروى عنه ابنه الإمام بدر الدين ، والشمس بن أبي الفتح الباعي ، والبدر بن جماعة ، والعلاء بن العطار وخلق » - انتهى كلام الذهبي .

وقال أبو حيان : « بحثت عن شيوخه فلم أجده له شيئاً مشهوراً يعتمد عليه ، ويرجع في حل المشكلات إليه ، إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال : « قرأت على ثابت بن حيان » بجيـان ، وجلست في حلقة أبي علي الشلوبيـن نحوـاً من ثلاثة عشر يومـاً . » ولم يكن ثابت بن حـيان من التـحـويـين وإنما كان من أئـمة المـقـرـيـين . قال : وكان ابن مـالـكـ لا يـحـتـملـ المـباحثـةـ ولا يـثـبتـ المـناـقـشـةـ لأنـهـ إنـماـ أـخـذـ هـذـاـ الـمـلـ بـالـنـظـرـ فـيـ بـخـاصـةـ نـفـسـهـ ،ـ هـذـاـ معـ كـثـرـةـ مـاـ اـجـتـنـاهـ مـنـ ثـرـاتـ غـرـسـهـ . » انتهى .

قلت : وله شيخ جليل وهو ابن يعيش الحلبي . ذكر ابن إياز في أوائل شرح التصريف أنه أخذ عنه . أما تصانيفه فرأيت في تذكرة تاج الدين بن مكحوم أن بعضهم نظمها في أبيات ، قال الشيخ تاج الدين : وقد أهمل أشياء أخرى من مؤلفاته فذيلت عليهاوها أنا أورد نظمها مبيناً :

سحائب غفران تغاديء عطلا
وبين أقوال النحوة وفصلا
خلاصة علم النحو والصرف مكملا

سقى الله رب العرش قبر ابن مالك
فقد ضم شمل النحو من بعد شته
بـ «اللقيمة» تسمى (الخلاصة) قد حوت
و «كافية» الخ

قال الصلاح الصفدي :
أخبرني الشهاب محمود أن ابن مالك كان إذا صلي في «العادلية» وكان إمامها ، يشيعه قاضي
القضاء شمس الدين بن خالكان إلى بيته تعظيميا له .

وكان أمّة في الاطلاع على الحديث ، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد
عدل إلى الحديث ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى اشعار العرب .

وكان كثير العبادة كثير التوافل ، حسن السمت ، كامل العقل . وإنفرد عن المغاربة
بشئين : الكرم ومذهب الإمام الشافعي . وكان يقول عن الشيخ جمال الدين بن الحاجب :
«إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل ، وصاحب المفصل نحو صغير» قال : «وناهيك بمن
يقول هذا في حق الزمخشري» . وكان الشيخ ركن الدين بن القويغ يقول : «إن ابن مالك
خل للنحو حرمة» .

توفي ابن مالك ثانٍ عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

«بغية الوعاة» ص ٥٣ - ٥٧

(١) حذفنا من الترجمة المنظومة في اسماء كتبه وما قيل فيه من رثاء ، للاختصار .

الفية ابن مالك وشروحها

(المتون) في العلوم اصطلاح جرى عليه المعلمون يطلقونه على مبادئه فن من الفنون تكشف في رسائل قصيرة يستظهرها الطلاب ترسياً لمسائل العلم في حفظهم ، وكلما كانت ألفاظها أقل راًت قبولاً عند المدرسين ، ثم يشرعون بعد استظهارها للطلاب لها في شرح ألفاظها وحل معقداتها ؛ أسلوب جروا عليه في العصور التي جمدت فيها الملوكات على ما فيه من عناء على (الماتن) والطالب معاً . وهذه المتون تكون نثراً وتكون نظماً ، وقد راج للنظم لسهولة حفظه وإن كان التعقيد ألزم له لما توجبه مقتضيات الوزن من تقديم وتأخير زيادة على التكثيف . فمنظومة في مصطلح الحديث ، ومنظومة في القراءات ، ومنظومة في الفرائض ، ومنظومة في الرياضيات ، وفي الفلسفة ، وفي الفقه . . . الخ

وفي النحو ألفية لابن معطى المتوفى سنة (٦٢٨ هـ) بالقاهرة ألف بيت من بحر السريع وبحر الرجز ، فأراد ابن مالك نظم ألفية له تلم بمسائل أكثر وتكون كلها من بحر الرجز ، ووفق إلى ما أراد ، ورزقت ألفيته للشهرة في التعليم فمازال الطلبة يبدؤون باستظهارها منذ ثمانمائة سنة حتى اليوم . وشرحـت شروحـاً جمة أشهـرها شـرح ابن عـقـيل ، ووضـعت على الشـروحـ

حواشٍ كثيرة ، وصارت الألفية مدار التدريس والتأليف يتبارى المؤلفون في شرحها ، ومن أعجب من المؤلفين بشرح ما وضع عليه حاشية تبسيط مسائله .

وأكثر هذه الشروح شهرة اليوم شرح ابن عقيل ، وشرح الأشموني ، وكلاهما مطبوع طبعات عده ، يدرس في المعاهد والمدارس وحلقات العلم ، ومن الحواشي المشهورة المطبوعة أيضاً (حاشية الصبان على شرح الأشموني) و (حاشية الخضري على شرح ابن عقيل) .

إليك نموذجاً من نظم ألفية ابن مالك في عمل (لا) للنافية للجنس وشرح ابن عقيل على بيتين منها ، ثم نموذجاً من كتاب ابن مالك (شوادر التوضيح والتصحیح لمشكلات الجامع للصحيح) وهو كتاب وضعه البعض ما يستشكله دارسو صحيح البخاري من مشكلات نحوية وهو من كتبه اللطيفة الحجم ، لتكون على علم بسعة اطلاعه وأسلوب تأطيه لبحثه :

١ - ألفية ابن مالك

بدأها بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال محمد هو ابن مالك
أحمد ربي الله خير مالك
مصلياً على النبي المصطفى
وآلـه المستكمـلين للشرفـا

وأستعين الله في ألفيـه
 مقاصد النحو بها محوـه
 تقرب الأقصى بلفظ موجـز
 وتبسط البـذل بـوعـد منجـز
 وتقـتضـي رضاً بـغير سـخط
 فـائـقةـ أـلـفـيـةـ (ـابـنـ مـعـطـيـ) (ـ١ـ)
 وـهـوـ بـسـقـ حـائـرـ تـفضـيلاـ
 مـسـتـوـجـبـاـ ثـائـيـ الجـمـيـلاـ
 وـالـلهـ يـقـضـيـ بـهـبـاتـ وـافـرـةـ
 لـيـ وـلـهـ فيـ درـجـاتـ الآـخـرـهـ
 كـلامـاـ لـفـظـ مـفـيدـ كـ (ـاسـتـقـمـ)
 اـسـمـ وـفـعـلـ ثـمـ حـرـفـ الـكـلـمـ الخـ

(ـلاـ) الـيـ لـقـيـ المـنـسـ

١ - عـلـمـ (ـإـنـ) اـجـعـلـ (ـلاـ) فيـ نـكـرـهـ
 مـفـرـدـةـ جـاءـتـكـ أوـ مـكـرـرـهـ

(ـ١ـ) ذـكـرـ الـخـصـريـ فيـ حـاشـيـهـ هـنـاـ ماـ يـلـيـ : وـقـدـ فـاقـتـ هـذـهـ أـلـفـيـةـ اـبـنـ مـعـطـيـ لـفـظـاـ لـأـنـهـ مـنـ بـحـرـ
 وـاحـدـ وـتـلـكـ مـنـ السـرـيـعـ وـالـرـجـزـ ، وـعـنـ لـأـنـهـ أـكـثـرـ أـحـكـامـ مـنـهـ . وـلـلـجـلـالـ السـيـوطـيـ
 أـلـفـيـةـ زـادـ فـيـهاـ عـلـىـ هـذـهـ كـثـيرـآـ وـقـالـ فـيـ أـوـلـهـ : فـائـقةـ أـلـفـيـةـ اـبـنـ مـالـكـ .
 وـلـلـأـجـهـورـيـ الـمـالـكـيـ أـلـفـيـةـ زـادـ فـيـهاـ عـلـىـ السـيـوطـيـ وـقـالـ فـيـهاـ :

فـسبـانـ الـمـنـفـرـدـ بـالـكـمـالـ الـذـيـ لـاـ يـدـافـ . صـ ١٢ـ مـنـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ مـنـ حـاشـيـةـ الـخـصـريـ
 - الطـبـعـةـ الثـانـيـةـ بـبـولـاقـ سـنةـ ١٣٠٢ـ .

٢ - فانصب بها مضافاً أو مضارعه
وبعد ذاك الخبر اذكر ، رافعه

الشرع لوبن عفيف :

١ - هذا هو القسم الثالث من الحروف الناسخة للابتداء وهي (لا) التي لنفي الجنس ، والمراد بها (لا) التي قصد بها التنصيص على استغراق النفي للجنس كله . وإنما قلت (التنصيص) احترازاً من التي يقع الاسم بعدها مرفوعاً نحو (لا رجل قائماً) فإنها ليست نصاً في نفي الجنس إذ يحتمل (لا رجل قائماً بل رجالن) ، وبتقدير نفي الوحدة يجوز (لا رجل قائماً بل رجالن) ؛ وأما (لا) هذه فهي لنفي الجنس ليس إلا ، فلا يجوز (لا رجل قائم بل رجالن) .

وهي تعمل عمل (إن) فتنصب المبتدأ اسمها وترفع الخبر خبراً لها ، ولا فرق في هذا العمل بين المفردة وهي التي لم تتكرر نحو (لا غلامَ رجل قائم) وبين المكررة نحو (لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله) ولا يكون اسمها وخبرها إلا نكرة ، فلا وتعمل في المعرفة ؛ وما ورد من ذلك مؤول بنكرة كقوتهم : (قضيةٌ ولا أبا حسن لها) والتقدير : (ولا مسمى بهذا الاسم لها) . ويدل على أنه معامل معاملة النكرة وصفه بالنكرة لقولك : (ولا أبا حسن حناناً لها) (١) .

(١) حناناً : راحماً ، وبروى : حياً .

ولا يفصل بينها وبين اسمها، فإن فصل بينهما ألغيت كقوله
تعالى (لا فيها غولٌ ولا هم عنها يتزرون» (١)

٢ - لا يخلو اسم (لا) من ثلاثة أحوال : الحال الأول
أن يكون مضافاً نحو (لاغلام رجل حاضر) . الثاني أن يكون
مضارعاً للمضاف أي مشابهاً له والمراد به كل اسم له تعلق بما
بعده إما بعمل نحو (لا طالعاً جيلاً ظاهر) و (لا خيراً من زيد
راكب) ، وإما بعطف نحو (لا ثلاثةً وثلاثين عندنا) ويسمى
المشبّه بال مضارف مطولاً و مطولاً أي مددواً . وحكم المضاف
والمشبّه به النصب لفظاً كما مثل . والحال الثالث أن يكون
مفرداً والمراد به ما ليس بمضارف ولا مشبّه بال مضارف ، فيدخل
فيه المثنى والمجموع ، وحكمه للبناء على ما كان ينصب به ،
لتراكبه مع (لا) وصيروته معها كالشيء الواحد ، فهو معها
ك (خمسة عشر) ولكن محله النصب بـ (لا) لأنه اسم لها .
فالفرد الذي ليس بمحض المثنى ولا مجموع يبني على الفتح لأن نصبه
بالفتحة نحو (لا حول ولا قوة إلا بالله) والمثنى وجمع المذكر
للسامي يبنيان على ما كانا ينصبان به وهو البناء نحو : (لامسلمين
لك ولا مسلمين لزيد) فـ (مسلمين) وـ (مسلمين) مبنيان
لتراكبهما كما بني (رجل) لتراكبها معها . وذهب الكوفيون
والزجاج إلى أن (رجل) في قوله (لا رجل) معرّب وأن
فتحته فتحة إعراب لا فتحة بناء ، وذهب البرد إلى أن (مسلمين)
ومسلمين) معرّبان .

(١) سورة الصافات ٤٧/٣٧ .

وأما جمع المؤنث السالم فقال قوم : يعني على ما كان ينصب
به وهو الكسر فتقول (لا مسلمات لك) بكسر اللاء و منه قوله :
إن الشباب الذي مجده عوائقه
فيه نلذ ولا لذات للشيب (١)
وأجاز بعضهم الفتح نحو (لا مسلمات لك) . وقول المصنف
(وبعد ذاك الخبر اذكر ، رافعه)

معناه أنه يذكر الخبر بعد اسم (لا) مرفوعاً ، والرافع له
(لا) عند المصنف وجماعة ، وعند سيبويه للرافع له (لا)
إن كان اسمها مضافاً أو مشبهاً بالمضاف ، وإن كان الاسم
مفرداً فاختلت في رافع الخبر : فذهب سيبويه إلى أنه ليس
مرفوعاً بـ (لا) وإنما هو مرفوع على أنه خبر مبتدأ لأن مذهب
أن (لا) وأسمها المفرد في موضع رفع بالابتداء والاسم المرفوع
بعدها خبر عن ذلك المبتدأ ، ولم تعمل (لا) عنده في هذه
الصورة إلا في الاسم ؛ وذهب الأخفش إلى أن الخبر مرفوع
بـ (لا) ف تكون (لا) عاملة بالجزأين كما عملت فيهما مع
المضاف والمشبه به . - اه (٢) .

(١) البيت لسلامة بن جندل السعدي .

(٢) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١٤١/١ - ١٤٤ - الطبعة الثانية ببولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

٢ - شوأهـ التوضيـح والتصـحـيح لـمشـكلـاتـ الجـامـعـ الصـحـيقـ

البعـثـ الثـانـيـ فـيـماـ بـعـدـ الشـرـطـ مـضـارـعاـ وـالـجـوابـ مـاضـياـ

وـمـنـهـ قـوـلـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «ـمـنـ يـقـمـ لـلـيـلـةـ الـقـدـرـ
غـفـرـ لـهـ»ـ ،ـ وـقـوـلـ عـائـشـةـ أـمـ الـمـؤـمـنـينـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ :ـ (ـإـنـ
أـبـاـ بـكـرـ رـجـلـ أـسـيـفـ (ـحـزـينـ)ـ ،ـ مـتـىـ يـقـمـ مـقـامـكـ رـقـ)ـ .ـ

قـلـتـ :ـ تـضـمـنـ هـذـانـ الـحـدـيـانـ وـقـوـعـ الشـرـطـ مـضـارـعاـ وـالـجـوابـ
مـاضـياـ لـفـظـاـ لـاـ مـعـنـىـ ،ـ وـالـتـحـويـونـ يـسـتـضـعـفـونـ ذـلـكـ ،ـ وـيـرـاهـ
بعـضـهـمـ مـخـصـوصـاـ بـالـضـرـورـةـ .ـ

وـالـصـحـيـحـ الـحـكـمـ بـجـواـزـهـ مـطـلـقاـ لـثـبـوتـهـ فـيـ كـلـامـ أـفـصـحـ
الـفـصـحـاءـ وـكـثـرـةـ صـدـورـهـ عـنـ فـحـولـ الـشـعـرـاءـ كـقـوـلـ نـهـشـلـ بـنـ
ضـمـرـةـ :

يـاـ فـارـسـ الـحـيـ يـوـمـ الـرـوـعـ قـدـ عـلـمـواـ
وـمـدـرـهـ اـخـصـمـ لـاـ زـيـكـنـساـ وـلـاـ وـرـعاـ(ـ١ـ)

وـمـدـرـكـ التـبـلـ فـيـ الـأـعـدـاءـ يـطـلـبـهـ
وـمـاـ يـشـأـ عـنـهـمـ مـنـ تـبـلـهـمـ مـنـعـاـ

(ـ١ـ) المـدـرـهـ القـوـيـ الـجـدـلـ وـالـحـجـةـ .ـ الـوـرـعـ :ـ الـجـانـ .ـ التـبـلـ :ـ الـثـأـرـ .ـ

وكقول أعيش قيس :

وما يرد من جميع بعد فرقه

وما يرد بعد من ذي فرقة جمعا

وكقول حاتم :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله

وفرجك نالا متنهى الدم أجمعوا

وكقول رؤبة :

ما يلق في أشداقه تلهمها

إذا أعاد للزار أو تنهما (١)

ومثله :

إن يسمعوا ريبة طاروا لها فرحاً

مني وما سمعوا من صالح دفنا (٢)

ومثله :

إن تستجروا وأجرناكم ، وإن تهنووا

فعندها لكم الإنجاد مبنول

ومثله :

متى تأته ألفيته متكتلاً

بنصرة مذعور وترفيه بايس

(١) تلهم : ابتلעה مرة واحدة ، تنهم : توعد ، صوت شديداً فوق الزفير – والبيت في وصف أسد .

(٢) لقعنب بن أم صاحب ، بأمه اشتهر وأبوه ضمرة .

ومثله :

إِنْ تَصْرِمُنَا وَصَلَّنَاكُمْ وَإِنْ تَصْلُوْا

مَلَأْتُمْ أَنفُسَ الْأَعْدَاءِ إِرْهَابًا

وَمَا يُؤْيِدُ هَذَا الْاسْتِعْمَالُ قَوْلُهُ تَعَالَى : «إِنْ نَشَأْ نَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنْ لِلْسَمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ هَا خَاضِعِينَ .» (١) فَعَطْفُ عَلَى الجَوَابِ لِلَّذِي هُوَ (نَزَّلَ) : (ظَلَّ) وَهُوَ مَاضِيُّ الْفَظْلِ ، وَلَا يُعَطِّفُ عَلَى الشَّيْءِ غَالِبًا إِلَّا مَا يَجُوزُ أَنْ يَحْلِ مَحْلَهُ ، وَتَقْدِيرُ حَلُولِ (ظَلَّ) مَحْلَ (نَزَّلَ) : إِنْ نَشَأْ ظَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ لَا نَزَّلْتَ خَاضِعِينَ .

وَهَذَا الْاسْتِعْمَالُ أَيْضًا مُؤْيِدٌ مِنْ الْقِيَاسِ ، وَذَلِكَ أَنْ مَحْلَ الشَّرْطِ مُخْتَصٌ بِمَا يَتَأثِّرُ بِأَدَاءِ الشَّرْطِ لِفَظًا أَوْ تَقْدِيرًا ، وَالْفَظْلِيُّ أَصْلُ التَّقْدِيرِيِّ ، وَمَحْلُ الْجَوَابِ مَحْلُ غَيْرِ مُخْتَصٍ بِذَلِكَ لِجَوازِ أَنْ يَقْعُدُ فِيهِ جَمْلَةُ اسْمِيَّةٍ ، وَفَعْلُ أَمْرٍ أَوْ دُعَاءٍ ، أَوْ فَعْلًا مَقْرُونًا بِقَدْ ، أَوْ حَرْفِ تَنْفِيسٍ ، أَوْ بِ(لَنْ) ، أَوْ بِ(مَا) لِلنَّافِيَةِ ؛ فَإِذَا كَانَ الشَّرْطُ وَالْجَوَابُ مُضَارِعِيْنِ وَافْقًا لِأَصْلِ لِأَنَّ الْمَرَادَ مِنْهُمَا الْاسْتِقبَالُ ، وَدَلَالَةُ الْمُضَارِعِ عَلَيْهِ موافِقَةُ الْوَضْعِ ، وَدَلَالَةُ الْمَاضِيِّ عَلَيْهِ مُخَالَفَةُ الْوَضْعِ ، وَمَا وَافَقَ الْوَضْعُ أَصْلُ لِمَا خَالَفَهُ ؛ وَإِذَا كَانَا مَاضِيَّنِ خَالِفًا لِأَصْلِ ، وَحَسِّنُوهُمَا وَجُودُ التَّشَاكِلِ ؛ وَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا مُضَارِعًا وَالْآخَرُ مَاضِيًّا حَصِّلَتْ الْمُوافِقَةُ مِنْ وَجْهِ ، وَالْمُخَالَفَةُ مِنْ وَجْهِ ، وَتَقْدِيرُ الْمُوافِقِ أَوْلَى مِنْ تَقْدِيرِ الْمُخَالَفِ ، لِأَنَّ الْمُخَالَفَ نَائِبٌ عَنْ غَيْرِهِ وَالْمُوافِقُ لَيْسَ نَائِبًا ، وَلِأَنَّ الْمُضَارِعَ بَعْدَ أَدَاءِ الشَّرْطِ غَيْرُ مَصْرُوفٍ عَمَّا وَضَعَ لَهُ إِذ-

(١) سورة الشوراء ٤/٢٦ .

هو باق على الاستقبال ، والماضي بعدها مصروف عما وضع له إذ هو ماضي اللفظ مستقبل المعنى فهو ذو تغير في اللفظ دون المعنى ، على تقدير كونه في الأصل مضارعاً فردة الأداة ماضي اللفظ ولم يتغير معناه ، وهذا مذهب المبرد ؟ أو هو ذو تغير في المعنى دون اللفظ على تقدير كونه في الأصل ماضي اللفظ والمعنى ، فغيرت الأداة معناه دون لفظه وهذا هو المذهب المختار . وإذا كان ذا تغير فالتأنير أولى به من للتقدم ، لأن تغير الأواخر أكثر من تغيير الأوائل . (١)

(١) ص ١٤ - ١٧ من شواهد التوضيح والتصحیح لمشكلات الجامع الصحيح - مطبعة بلة البيان العربي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ - ١٩٥٧ م .

ابن هشام الانصاري

٧٦١ - ٧٠٨

عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الانصاري ، الشيخ جمال الدين الخليلي
النحوى الفاضل المشهور أبو محمد .

قال في الدرر : ولد في ذي القعدة سنة ثمان وسبعيناً ، ولزم الشهاب عبد اللطيف بن المرحل ،
وتلا على ابن السراج ، وسمع على أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى ولم يلازمه ولاقرأ
عليه غيره) وحضر دروس التاج التبريزى وقرأ على التاج الفاكهانى شرح الإشارة له إلا الورقة
الأخيرة وتفقه الشافعى ثم تحمل فحفظ مختصر الحرقى في دون أربعة أشهر وذلك قبل موته بخمس
سنين ! وأنقذ العربية ففاق الأقران بل الشیوخ ، وحدث عن ابن جماعة بالشاطبية .

وخرج به جماعة من أهل مصر وغيرهم وتصدر لنفع الطالبين ، وانفرد بالقواعد الغربية
والباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة والتحقيق البارع والاطلاع المفرط والاقتدار على التصرف
في الكلام ، والملكة التي كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد مسهاً وموجزاً مع
التواضع والبر والشفقة ودماثةخلق ورقة القلب

قال ابن خلدون :

« ما زلنا - ونحن بالغرب - نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ، أخى
من سبيوه » .

وكان كثير المخالف لآبى حيان ، شديد الانحراف عنه .

صنف : « مبني الليب عن كتب الأغاريب » اشتهر في حياته وأقبل الناس عليه . (وقد
كتبت عليه حاشية وشراحاً لشواهد) ، والتوضيح على الألفية ، مجلد (يعني أوضح المسالك إلى
ألفية ابن مالك) ، رفع الخصاصة : أربع مجلدات ، عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب :
مجلدان ، التحصيل والفصيل لكتاب التذليل والتكميل : عدة مجلدات ، شرح التسهيل : مسودة ،

(١) شهد الدمامي شارح المغني ، أن ابن خلدون شديد التغالي في الثناء على مصنف المغني ، وأنه
قال مرة لولد ابن هشام في مجلس : « لو عاش سبيوه لم يمكنه الا التلمذة لوالدك والقراءة
عليه » - حاشية الأمير على المغني ٢٦/٢ طبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ .

شرح الشواهد الكبرى ، ... الصغرى ، القواعد الكبرى ، ... الصغرى ، شذور الذهب ، وشرحه ،
(وقد كتبت عليه حاشية لما قرئ على) ، قطر الندى ، شرحه ، الجامع الكبير ، الجامع الصغير ،
شرح المحة لأبي حيان ، شرح بانت سعاد ، شرح البردة ، التذكرة : خمسة عشر مجلداً ،
السائل السفرية في النحو ، وغير ذلك . ولها عدة حواش على (الألفية) و (التسهيل) وغير ذلك .

ومن شعره :

ومن يصطب للعلم يظفر بليله
ومن لا يبذل النفس في طلب العلم
يسيراً يعش دهرًا طويلاً أخاً ذل

توفي ليلة الجمعة الخامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعين وثلاثة ابن نباتة بقوله :

سقى ابن هشام في الثرى نوه رحمة
يجر على مثواه ذيل غمام
سأروي له في سيرة المدح مستداً
فما زلت أروي «سيرة ابن هشام»
«بغية الوعاة» ص ٢٩٣

١— مغني اللبيب عن كتب الاعاريب

للكتاب للقيم المشهور ، الحافل بالمسائل والشواهد والمناقشات وحكایات الخلاف بين المذاهب النحوية ، وبين النحاة أنفسهم ، رزق الشهرة في حياة المصنف فكثر الإقبال عليه وحظي بخدمة بعد وفاته فكثُرت عليه الشروح ، والحواشی ، وكرم حاله الزمان فلم يأت على نسخه ، وبقي محفوظاً في دور الكتب في كل البلدان .

وانفرد في تأليفه بنسق استطاع ان يضم أشتاتاً كثيرة في نظام ، وأن يجمع قواعد كلية تنطبق على ما لا يحصل من أجزاء وأنواع ، وحشد له من الشواهد العظام كثرة قل أن تجتمع في كتاب . وكانت له على كتب النحوين المشهورين ملاحظة وماخذ نعاها عليهم واجتهد في اجتنابها في كتابه هذا ، ولا بأس في التعجيز بواحدة منها لتضمنها هدفه المزدوج من تأليفه ، قال :

«الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة ، وذلك بأن يجد خبراً بدون مبتدأ ، أو بالعكس ، أو شرطاً بدون جزاء أو بالعكس أو معطوفاً بدون معطوف عليه ، أو معمولاً بدون عامل نحو . . . وأما قولهم في نحو «سرابيل تقييم الحر » (١) : إن للتقدير : « . . . ولبرد » ، ونحو « وتلك

(١) سورة النحل ٨١/١٦ .

نعمة تمنّها علي أن عبّدتَ بني إسرائيل» (١) إن التقدير :
 (ولم تعبدني) ففضول في فن النحو ، وإنما ذلك للمفسر .
 وكذا قوله : (يحذف الفاعل لعظمته وحقارة المفعول أو بالعكس
 أو للجهل به أو للخوف عليه أو منه) ونحو ذلك ، فإنه طفل
 منهم على صناعة البيان ؛ ولم أذكر بعض ذلك في كتابي جرياً
 على عادتهم وأنسد متمثلاً :
 وما أنا إلا من (غزية) إن غوت

غويتُ وإن ترشد (غزية) أرشد

بل لأنني وضعت الكتاب لمعاطي التفسير والعربية جمياً» (٢)
 وقد كان المؤلف قيل له : «هلا فسرت القرآن أو أعرّبه؟»
 فقال : «أغناني المغني» .

وكم تفرد الزمخشري بنهج خاص في تفسيره (الكاف الشاف)
 ومعجمه (أساس البلاغة) سلك ابن هشام في (معنى الليب)
 طريقاً فريداً امتاز به بين النحاة بل أربى - في تفرده - على
 تفرد الزمخشري بالكثير الطيب .

أما خطة التأليف فقد جعل كتابه قسمين : القسم الأول
 أداره على «الأدوات في اللغة العربية» ، وبعد أن أحصاها
 وحصرها عاملة وغير عاملة ، جعل يجمع كل ما استطاع من
 شواهدها أداة أداة ؛ حتى إذا تم له جمع الشواهد على أداة
 ما ، أمعن فيها وفي شواهدها ثم نسق معانها المختلفة وأحكامها
 تبعاً لهذه المعاني ، وبذلك يخرج الدارس بفائدةتين عظيمتين :

(١) سورة الشعرا ٢٦/٢٦ .

(٢) معنى الليب ص ٧٢٤ - مطبعة دار الفكر بدمشق سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

أما الأولى فمادة قيمة غزيرة في النحو الحي المؤسس على الشواهد الصحيحة ، وأما الثانية فوقوفه على المعاني المختلفة والاستعمالات الصحيحة للأدوات في اللغة العربية .

ومعظم اعتماده في استنباط معاني المروف وأحكامها على القرآن الكريم ، إذ كان المصدر الوحيد الصافي المجمع على الوثوق بصحته وسلامة أدائه وتتزهه عن التحريف . ويعتمد بعده على الشواهد من الأحاديث الشريفة والأمثال والأشعار كغيره من النحاة . ونستطيع إجمال قيمة الكتاب بقولنا هو ثقافة شواهد ومعانٍ كما هو ثقافة قواعد وأحوال .

والقسم الثاني يظهر لك من نظرة إلى تبويب الكتاب ، وإليك مضمون أبوابه الثمانية :

الباب الأول :

في تفسير المفردات (حروفاً وأفعالاً وأسماء) وذكر أحكامها – وقد استغرق جميع الجزء الأول في طبعتنا المشار إليها آنفاً ، وهو معظم الكتاب .

الباب الثاني :

في الجملة وأقسامها وأحكامها

الباب الثالث :

في شبه الجملة وأحكامها

الباب الرابع :

في ذكر أحكام يكثر دورها

الباب الخامس :

في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرف من
جهتها

الباب السادس :

في التحذير من أمور اشتهرت بين المقربين والصواب خلافها

للباب السابع :

في كيفية الإعراب .

الباب الثامن :

في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور
الجزئية (١) .

ألف الكتاب لطبقة حظيت من العلم بقسط وافر ، في ثقافتها العامة من علوم شريعة وتاريخ وفلسفة ومن علوم اللغة العربية وأدابها على المستوى المأمول في عصر المؤلف ، وهو مستوى يعلو كثيراً على المستوى الميسّر لطبقة المثقفين اليوم ثقافة رسمية (بدرجة الدكتوراه مثلاً) ، وهذا يكلف دارس الكتاب جهداً لتدارك بعض ما ينقصه ، كما عليه أن يلقي باله إلى مأخذ

(١) وصف ابن خلدون كتاب المغنى في مقدمته فقال : «وصل إلينا بالغرب هذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب بجملة ومفصلاً ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وسماه باللغى في الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انظم سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة وفور بضاعته منها ، ينحو في طريقته منحاة أهل الموصى الذين اقتدوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه ، فأتي من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه » .

ومزايا فيه ليستطيع أن يحظى منه بفائدة واسعة ؛ فمما ينبغي أن يتتبه إليه :

١ - أن عبارته تحتاج إلى تدقيق نظر ، فلا يسرعن في القراءة ، بل ليتروّ ويمنع ولا يجاوز جملة إلى غيرها حتى يستوعب المقصود منها .

٢ - وأنه كثير الاستطراد على غير ما نألف في تأليفنا الحديثية ، فيبينما هو - مثلاً - يبين الفرق بين الجملة والكلام (١) إذ ينقل عن الزمخشري تجويزه الاعتراض بين المتعاطفين بسبع جمل ، فيورد الشاهد ويورد وجهة النظر الثانية على الشاهد نفسه ، ثم يعرض على كل من الفريقين في صميم مذهبهم بنظرات فرعية . وكثيراً ما يجره الشاهد إلى تعليق ، فعرض خلاف في التعليق ، فمناقشة وجهات النظر بما يبعد بالذهن عن أصل الحكم الذي بدأ به . ولا بد أن تتحلى بشيء من الصبر وحسن الصحبة لتم لنا الفائدة ، إذ لا شك أن في استطراداته وشواهده وتمرинاته وتدريباته وتوهيماته وترجيحاته رياضة ذهنية ممتعة في كثير من الأحيان ، وإن ذلك لأعود على نشأة الملكة وتقويتها من حفظ القواعد بلا نقاش ولا محاسبة .

٣ - يزخر هذا الكتاب بشواهد من القرآن الكريم ، إلا أنه كثيراً ما يقتصر من الآية على موضع الشاهد ويكون أحياناً كلامتين أو جملة مبتورة منه لا نجد صلة لها بما قبلها وما بعدها

(١) ص ٤١٩ .

في الكتاب . فعلى الدارس أن يتمم في صفحة على حدة شواهد (١) كل بحث قبل قراءته ليكون من المعنى العام للشاهد معين له على فهم القاعدة وموضع الاستشهاد فتتسنى له مشاركة قيمة .

ولإنما كان يفعل ذلك ابن هشام وغيره من القدامى لسبب يرجع إلى تاريخ التعليم ، فنحن نعلم أن أول ما كان يبدأ به طالب العلم قدیماً حفظ القرآن الكريم ، فإذا أتم ذلك حفظ طرفاً من الأحاديث ، ثم أخذوه بتعلم النحو والصرف والبلاغة والتفسير وفن الحديث وبقية العلوم . فدارس المغنى قدیماً مفروض فيه استظهار القرآن ، فإذا مر ببعض آية كان أسرع إلى إكمالها من حفظه ، وليس الأمر كذلك اليوم ، وإنما يتم الدارس الباحث نقصه بتحضير الشواهد قبل تمثيل البحث ، وإذا سيكون نفعه من هذه الشواهد الكاملة عظيماً .

٤ - يحسن ألا يقتصر الدارس على موضع الشاهد الذي أتي به من أجله ، بل عليه أن يقف منه في مواضع قد تعدد ليقوى مرانته التحوية واللغوية والبيانية .

٥ - المصنف قوي الشعور بقيمة كتابه وبالمكانة العظمى التي له بين كتب العربية وعليها أن تتحرج المزايا التي تحدث عنها بصدق في مقدمته . وقد كان ضاع تأليفه الأول مع بقية كتبه ثم استأنف العمل ، يقول: «ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد ثانيةً ، واستأنفت العمل لا كسلًا ولا متوانياً ، ووضعت هذا التصنيف

(١) تداركنا ذلك في طبعتنا بإتمام الشواهد في المخواطي على قدر الحاجة التي قدرناها .

على أحسن إحكام وترصيف ، وتبعه مقلات مسائل الإعراب فافتتحتها ، ومعضلات يستشكّلها الطلاب فأوضحتها ونحوتها ، وأغالطاً وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبهت عليها وأصلحتها .

فدونك كتاباً تشد الرحال فيما دونه ، وتقف عنده فحول الرجال ولا يعودونه ، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله
واعلم أنني تأملت كتب الإعراب فإذا السبب الذي اقتضى طوها ثلاثة أمور .

أحدها : كثرة التكرار ، فإنها لم توضع لإفاده القوانين الكلية بل للكلام على الصور الجزئية . . .

والامر الثاني : إيراد ما لا يتعلّق بالإعراب ، كالكلام في اشتراق (اسم) فهو من السمة كما يقول الكوفيون ، أم من (السمو) كما يقول البصريون . . .

والثالث : إعراب الواضحة . . .

وقد تجنبت هذين الأمرين (١) وأتيت مكانهما بما يتبصر به الناظر ، ويتمرن به الخاطر من إيراد النظائر القرآنية ، والشاهد الشعرية ، وبعض ما اتفق في المجالس النحوية » (٢).

(١) كما ، والذي عده أمور ثلاثة لا اثنان .

(٢) ص ٤-٢

الكتاب متداول بكثرة في البيئات التعليمية بحيث كان من الممكن الاستغناء عن إيراد نص منه نموذجاً ، لكنني رأيت لاكتفاء بنص صغير عن حرفي (السين وسوف) لظهور لك النواحي التي يعني المصنف بها من الأداة وأسلوبه في بحثها ، وتقابل ذلك بما مر معاك عن الأداة نفسها من كتاب (الإنصاف لابن الأنباري وبهذا النص الآتي نستتم الكلام على الكتاب

حرف السين المهملة (١)

السين المفردة : حرف يختص بالمضارع ، ويخلصه للاستقبال ويتزلف منه منزلة الجزء ؛ وهذا لم يعمل فيه مع اختصاصه به . وليس مقتطعاً من (سوف) خلافاً للكوفيين ، ولا مدة الاستقبال معه أضيق منها مع (سوف) خلافاً للبصريين . ومعنى قول المغاربيين فيها (حرف تنفيس) : حرف توسيع ، وذلك أنها نقلت المضارع من الزمن الضيق - وهو الحال - إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال ، وأوضح من عبارتهم قول الزمخشري وغيره : (حرف استقبال) . وزعم بعضهم أنها تأتي للاستمرار لا للاستقبال ، ذكر ذلك في قوله تعالى : «ستجدون آخرين» (٢) الآية ، واستدل عليه بقوله تعالى : «سيقول السفهاء من الناس الناس ما ولاهم عن قبلتهم» (٣) مدعياً أن ذلك إنما نزل بعد قوله : (ما ولاهم ؟) قال : (فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال) انتهى .

وهذا الذي قاله لا يعرفه النحويون ، وما استند إليه من

(١) ص ١٤٧/١ .

(٢) سورة النساء ٩١/٤ : «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها »

(٣) سورة البقرة ١٤٢/٢ : «سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليهما ، قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

أنها نزلت بعد قوله : (ما ولاهم ؟) غير موافق عليه . قال الزمخشري : (فإن قلت : أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه ؟ قلت : فائدته أن المفاجأة للمكرر أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب إذا وقع .) انتهى

ثم لو سلم ، فالاستمرار إنما استفيد من المضارع كما تقول : (فلان يقرى الضيف ويصنع الجميل) ت يريد أن ذلك دأبه . والسين مفيدة للاستقبال إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل .

وزعم الزمخشري أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكرر أنه واقع لا محالة ، ولم أر من فهم وجه ذلك ؛ ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتبسيط معناه ، وقد أومأ إلى ذلك في سورة البقرة فقال في : «فسيكفيكهم الله» (١) : (ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين) ، وصرح به في سورة براءة فقال في «أولئك سيرحمهم الله» (٢) : السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ؛ فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد إذا قلت : سأنتقم منك .

(١) سورة البقرة . ١٣٧/٢

(٢) سورة التوبة . ٧١/٩

سوف (١)

مرادفة للسين ، أو أوسع منها ، على الخلاف (٢) . وكأن القائل بذلك نظر إلى أن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى وليس بمطرد .

ويقال فيها (سف) بحذف الوسط ، و (سو) بحذف الأخير ، و (سي) بحذفه وقلب الوسط ياء مبالقة في التخفيف حكاهما صاحب المحكم .

وتنفرد عن السين بدخول اللام عليها نحو : « ولسوف يعطيك ربك فترضي (٣) » وبأنها قد نفصل بالفعل الملغى كقوله :
وما أدرني وسوف - إخال - أدرني
أقوم آل حصن أم نساء (٤)

ملاحظة - الذين خدموا كتاب المغني شرعاً واحتصاراً وتعليقًا وعناية بالشواهد كثيرون وأكثر كتبهم مخطوطة محفوظة في دور الكتاب ، والذي طبع منها حتى الآن فيما علمنا :
١ - حاشية الشيخ محمد الأمير على مغني الليب ، طبعت في جزأين سنة ١٣٧٢ هـ بطبعة حجازي

(١) ص ١٤٨/١ .

(٢) يعني الخلاف على مدة الاستقبال في السين وسوف ، وقد أشار إليه في أول حديثه عن السين .

(٣) سورة الفتح ٥/٩٣ .

(٤) لزهير بن أبي سلمي .

في القاهرة . والمؤلف شديد العناية بالناحية الادبية فهو يكمل أبيات الشواهد سارداً ما قبلها وما بعدها مع بعض الشرح ، وهذه مزية حاشيته على غيرها .

٢ - تحفة العزيز بشرح مغنى الليب للدمامين وصل فيه إلى حرف الفاء ، وقد طبع على متن مغنى الليب ، وعليه حاشية الشنفي (لا تاريخ) طبع في المطبعة البهية بالقاهرة .

٣ - المنصف من الكلام على ابن هشام ، وهو حاشية للشمني طبعت بهامش الكتاب السابق - مطول جداً .

٤ - حاشية الدسوقي على مغنى الليب لابن عرفة الدسوقي ، طبعت على هامش المغني في جزأين سنة ١٣٠١ هـ بدار الطباعة الاميرية بالقاهرة . وهي تعنى كثيراً بتوضيح عبارات المؤلف .

٥ - القصر المبني على حواشي المغني للشيخ الأبياري وهو تقرير على حاشية الأمير المتقدمة - مطولة كثيرة الفوائد .

(٢)

كتاب شذور الذهب وشرحه

أكثر ما حظي بالشهرة والذيع من كتب ابن هشام ما كان
ذا صبغة تعليمية مدرسية ، فقد كثُر الانتفاع منها وأقبل
المقرئون على إقرائها طلابهم لما لمسوا من سرعة فائدتها ،
وألفوا أن يتدرجوا مع طلابهم بالسلسلة المعروفة له : يبدؤون
بكتاب «القطر» ثم بشرحه ثم بشذور الذهب ثم بشرحه
للمصنف نفسه ، ثم بالشرح المشهور لابن هشام لألفية ابن مالك
المسمى (أو أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) . . . ويختتمون
السلسلة بتاجها (معنى الليب) .

شذور الذهب متن صغير للمبتدئين بالنحو لم يجاوز في طبعته
(٣٤) صفحة من القطع الصغير ، عبارته موجزة مكثفة تصلح
لأن تستظره ، وقد أكسبها التكثيف غموضاً يصعب معه اجتلاء

مقصودها على الطالب الصغير ، ولعل هذا ما حدا ابن هشام على شرحه في خطة أوضحتها في مقدمته بقوله :

« وبعد فهذا كتاب شرحت به مختصرى المسمى بـ (شدور الذهب في معرفة كلام العرب) ، تكتمت به شواهده ، وجمعت به شوارده ، ومكنت من اقتناص أوابده رائده . قصدت فيه إلى ايضاح العبارة ، لا إلى اخفاء الإشارة ، وعمدت فيه إلى لف المبني والاقسام ، لا إلى نشر القواعد والأحكام ، والتزمت فيه أنني كلما مررت بيبيت من شواهد الأصل ذكرت إعرابه ، وكلما أتيت على لفظ مستغرب أردفته بما يزيل استغرابه ، وكلما أنهيت مسألة ختمتها بآية تتعلق بها من آي التنزيل ، وأتبعتها بما تحتاج إليه من إعراب أو تفسير أو تأويل ، وقصدني تدريب الطالب ، وتعريفه السلوك إلى أمثال هذه المطالب » .

اختلطت في تسلسل أبواب الكتاب بحوث الأسماء ببحوث الأفعال ، إذ أنه أدار ترتيبه على المبنيات فالمعربات فذكر المروعات فالمتصوبات من الأسماء والأفعال ثم عقب بال مجرورات فالتوابع وختم بالأعداد ، فهو يختلف تبويباً عما ألف في بقية الكتب من البدء ببحوث الأسماء فالأفعال فالحرروف ، لكنه مستوعب كل ما يجب على الطالب علمه . ونقدر أن الطلاب قد يمما كانوا يختمون به وبأوضح المسالك شبه ما نسميه اليوم بالمرحلة الإعدادية .

ويؤخذ عليه ما يؤخذ على كثير من مؤلفات النحو القديمة

عدم الاقتصر على ما يناسب مقدرة الطالب ، فتراهم يتعرضون في باب ما إلى وجوه القراءات و تحريرها وإلى ذكر أقوال مختلفة في إعراب شاهد ، ولو اقتصروا على خطوط البحث العريضة مرجئين القضايا الجانبية والاستطراد إلى مرحلة أعلى كانوا أقرب إلى التدرج الطبيعي في التعليم .

واسلوبه في الشرح أن يورد عبارة المختصر بعد كلمة (قلت) في صيغة الماضي ويبدأ الشرح بكلمة (وأقول) في صيغة المضارع الحالى . واللاحظ أن حجم الشرح يتفاوت بين جملة وجملة ، فلم يأخذ المصنف نفسه بمراعاة حجم ما ، ولكن بما رأى أن المقام والأحكام تقتضيه . وإليك نموذجاً مسالتين متجلورتين في الكتاب من باب المرفوعات : الأولى خبر (لا) النافية للجنس لتقابلها بما مر من شرح ابن عقيل آنفًا ، والثانية المضارع مجرد عن الناصب والجازم :

(١) ثم قلت : التاسع خبر (لا) التي لنفي الجنس نحو: «لا رجل أفضل من زيد» ويجب تنكيره كالاسم ، وتأخيره ولو ظرفاً ، ويكثر حذفه إن علم ، وتميم لا تذكره حينئذ .

وأقول : التاسع من المرفوعات : خبر (لا) التي لنفي الجنس أعلم أن (لا) على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون نافية ، فتحتص بالمضارع وتجزمه نحو

(١) سورة الاسراء . ٣٧/١٧

«ولا تمش في الأرض مرحًا» ، «فلا يسرف في القتل» (١) ،
 «لا تحزن إن الله معنا» (٢) ، و تستعار للدعاء فتجزم أيضًا
 نحو : «ربنا لا تؤاخذنا» (٣)

الثاني : أن تكون زائدة دخولها في الكلام كخروجها فلا
 تعمل شيئاً نحو «ما منعك أن لا تسجد» (٤) أي : (أن
 تسجد) ، بدليل أنه قد جاء في مكان آخر بغير (لا) ، و قوله
 تعالى : «لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من
 فضل الله» (٥) ، و قوله تعالى : «وحرام على قرية أهل كلناها
 أنهم لا يرجعون» (٦)

الثالث : أن تكون نافية وهو نوعان : داخلة على معرفة فيجب
 إعماها وتكرارها نحو : (لا زيد في الدار ولا عمرو) ، وداخلة
 على نكرة وهي ضربان : عاملة عمل ليس فترفع الاسم وتنصب
 الخبر كما تقدم وهو قليل ، وعاملة عمل (إن) فتنصب الاسم
 وترفع الخبر ، والكلام الآن فيها وهي التي أريد بها نفي
 الجنس على سبيل التنصيص لا على سبيل الاحتمال .

وشرط إعماها هذا العمل أمران : أحدهما أن يكون اسمها
 وخبرها ذكرتين كما بينا . والثاني أن يكون الاسم مقدمًا وخبر
 مؤخرًا وذلك كقولك : (لا صاحب علم ممقوت) و (لا طالعاً

(١) سورة الاسراء . ٣٣/١٧

(٢) سورة التوبه . ٤٠/٩

(٣) سورة البقرة . ٢٣٦/٢

(٤) سورة الأعراف . ١٢/٧

(٥) سورة الحديد . ٣٤/٥٧

(٦) سورة الأنبياء . ٩٥/٢١

جبلًا حاضرٌ) .

فلو دخلت على معرفة أو على خبر مقدم وجب إهمالها وتكرارها ، والأول كما تقدم من قوله (لا زيد في الدار ولا عمرو) ، وأما قول العرب (لابصرة لكم) وقول عمر (قضية ولا أبا حسن لها) يزيد علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وقول أبي سفيان يوم فتح مكة (لاقريش بعد اليوم) وقول الشاعر .

أرى الحاجات عند أبي خبيب

نَكْدَنْ وَلَا أُمِيَّةَ فِي الْبَلَادِ (١)

فمؤول بتقدير (مثل) أي : ولا مثلَ أبي حسن ، ولا مثل البصرة ، ولا مثل قريش ولا مثل أمية .

والثاني كقول الله سبحانه وتعالى : « لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينرفون » (٢) .

ويكثر حذف هذا الخبر إذا علم ، كقول الله سبحانه وتعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت» (٣) أي : فلا فوت لهم ، وقوله تعالى : « لا ضير» (٤) أي لا ضير علينا . وبنو تميم يوجبون حذفه إذا كان معلوماً ، وأما إذا جهل فلا يجوز حذفه عند أحد فضلاً عن أن يجب ، وذلك نحو : (لأحد غير من الله عز وجل) . اهـ

(١) البيت لعبد الله بن الزبير الأنصاري ، يهجو عبد الله بن الزبير أبو خبيب ، لأنه مدحه فلم يكن له .

(٢) سورة الصافات ٤٧/٣٧ .

(٣) سورة سباء ٥١/٣٤ .

(٤) سورة الشعراء ٥٠/٣٦ .

ثم قلت : العاشر المضارع إذا تجرد من ناصب أو جازم .
وأقول : العاشر من المرفوعات - وهو خاتمتها - الفعل المضارع
إذا تجرد من ناصب وجازم كقولك (يقوم زيد) و (يقعد
عمرو) . فأما قول أبي طالب يخاطب النبي صلى الله عليه
 وسلم :

محمد تقد نفسك كل نفس
إذا ما خلت من أمر تبala
 فهو مقرون بجازم مقدر وهو لام الدعاء ، و قوله (تبala)
أصله (وبالا) فأبدل الواو تاء كما قالوا في (وراث) و (وجه)
في تراث وتجاه .

وأما قول أمرىء القيس :
فالليوم أشرب غير مستحقب
إثماً من الله ولا واغل (١)
فليس قوله (أشرب) مجزوماً وإنما هو مرفوع ، ولكن
حذفت الضمة للضرورة ، أو على تنزيل (رب غـ) بالضم من
قوله (أشرب غير) متزلة (عـضـدـ) بالضم ، فإنهم قد يجرون
المنفصل مجرى المتصل ، فكما يقال في (عـضـدـ) بالضم :
(عـضـدـ) بالسكون ، كذلك قيل في (رب غـ) بالضم : (ربـغـ)
بالإسكان . (٢)

(١) مستحقب : مكتسب ، استحقب الشيء وضعفه في حقيقته. الواغل : الداخل على مجلس شرائب بغيرة دعوة
(٢) ص ٢٤٩ - ٢٥٥ شرح شنور الذهب - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٦ -

(١) سيبويه (*)

-- ١٨٠ --

« لقب « سيبويه » ومعنىه رائحة التفاح ، قيل : كان من يلقاء لا يزال يشم رائحة الطيب فسمي بذلك ، وقيل كان يعتاد شم التفاح ، وقيل : لقب بذلك لطاقتة .

اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، أبو بشر ، امام البصريين . كان أصله من (البيضاء) من أرض فارس ، ونشأ بالبصرة وأخذ عن الخليل ويونس وأبي الخطاب الأخفش وعيسي بن عمر . وسبب طلبه للنحو أنه قد حماد بن سلمة يطلب عليه الحديث ، فاستعمل عليه الحديث « ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبو الدرداء » فقرأ سيبويه (ليس أبو الدرداء) فصاح به استاذة حماد : « لخت يا سيبويه » فقال :

« لا جرم لأطلبن علمًا لا تلحنني فيه أبداً »

ثم لزم الخليل .

قال أبو عبيدة : قيل ليونس بعد موت سيبويه : « ان سيبويه صنف كتاباً في ألفورقة من علم الخليل » فقال : « ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل؟ حيثئني بكتابه . » فلما رأه قال : « يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما حكاه عني »

قال الازهري : « كان سيبويه علامة حسن التصنيف ، جالس الخليل

(*) سهونا عن اثباتها في ص ١١٣ فاستدركتناها هنا .

وأخذ عنه ، وما علمنا أحداً سمع منه كتابه لازمه احتضر شاباً ، « نظرت في كتابه فرأيت فيه علاماً جماً »

ويحكي أنه (اي الكتاب) تحرق في كم المازني بضع عشرة مرة . وكان المبرد يقول لن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيمياً واستصعباً لما فيه .

وقال بعضهم : كنت عند الخليل فأقبل سيبويه فقال : « مرحباً بزائر لا يُعلم » وما سمعت الخليل يقولها لغيره .

وكان شاباً لطيفاً جيلاً وكان في لسانه حبسة ، وقلمه أبلغ من لسانه .

وقال الجرمي : « في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سأله عنها فعرف ألفاً ولم يعرف خمسين . »

وللزخشي فيه :

ألا صلي الإله صلاة صدق
على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يفن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر

ورد سيبويه بغداد على يحيى البرمكي ، فجمع بينه وبين الكسائي للمناظرة . . (١) ولم تطل مدة سيبويه بعد ذلك ومات بالبيضاء سنة ثمانين ومئة وعمره اثنان وثلاثون ، وقيل نصف على الأربعين .

« بغية الوعاء » ص ٣٦٦ (٢)

(١) مرت معي ص ٤٩ .

(٢) وانظر عنه ص (٨٤ و ١٠٩) من كتابنا « في أصول النحو » الطبعة الثالثة بمطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٦٤ .



(١) مفرد البحث

الصفحة	
٣	المقدمة
٧	توطئة تاريخية : بوادر الحن - نشأة النحو .
٣٤	المدرستان الأوليان : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة - الطبقة الأولى من البصريين
٣٦	الطبقة الثانية من البصريين
٤١	مدرسة الكوفة .
٤٥	نشأة الخلاف واحتكار المدرستين
٦٤	الفروق بين المذهب البصري والمذهب الكوفي : أمر السماع
٧٠	أمر القياس
٧٧	نموذج من الخلاف بين المذهبين : مسألة سوف (١) .
٨٠	أثر المصيبة في الخلاف .
٩٠	كتب الخلاف بين المذهبين
٩٣	المذهب البغدادي
٩٥	المدرسة الأندلسية
١٠٨	خاتمة .

(١) وفي ص ١٦٤ : اشتراق كلمة (اسم) ، وفي ص ١٧٢ الكلام على وزن (إنسان) ،
وهي ص ١٧٥ خلاف المدرستان في (التعجب من البياض والسوداد) .

(٢) كتب ونصوص

- ١١٣ «الكتاب» لسيبوه
- ١٢٢ ابن جني وكتاباه (التصريف الملوكى) و(المنصف شرح كتاب التصريف للمازنى).
- ١٣٧ الزمخشري وكتابه (المفصل) وشرحه لابن يعيش
- ١٤٧ كمال الدين الأنصارى وكتاباه (الإنصاف في مسائل الخلاف) و(لمع الأدلة)
- ١٧٨ ابن مالك وألفيته وشرحها ، وكتابه (شوادر التوضيح والتصحيح لشكلات الجامع الصحيح)
- ١٩٠ ابن هشام الأنصارى وكتاباه (مفى الليب) و(شرح شنور الذهب)
- ٢١٠ استدراك : ترجمة سيبوه
- ٢١٣ مسرد البحوث .

آثار المؤلف المطبوعة

١

- دار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٠
المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠
المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
جامعة دمشق سنة ١٩٦٤
جامعة دمشق سنة ١٩٦٣
معهد الدراسات العالية في القاهرة ١٩٦٢
جامعة دمشق ١٩٦٣
- أسواق العرب في الحاهية والإسلام (طبعه ثانية)
ابن حزم الأندلسي ورسالته (في المفاضلة بين الصحابة)
الإسلام والمرأة
عائشة والسياسة (طبعه ثانية سنة ١٩٥٧)
في أصول النحو (طبعه ثالثة)
مذكرات في قواعد اللغة العربية (طبعه خامسة)
حاضر اللغة العربية في الشام
نظارات في اللغة عند ابن حزم

ب

- المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٣٩
المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠
المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤١
المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٠
الجامعة السورية سنة ١٩٥٧
- الجامعة السورية سنة ١٩٥٨
الجامعة السورية سنة ١٩٦٠
- المخطوطات التي عني بتحقيقها ونشرها :
الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي
في المفاضلة بين الصحابة لابن حزم
سير النبلاء للذهبي (جزء خاص بترجمة ابن حزم)
سير البلاط للذهبي (جزء خاص بترجمة السيدة عائشة)
تاریخ داریا للقاضی عبد الجبار الخولانی
الإعراب في جمل الإعراب لابن الأباری
لمع الأدلة لابن الأباری
توجيه أبيات مشكلة الإعراب الفارقی
ملخص إبطال القياس لابن حزم